

جاذبية صدق

مَلَكَهَ اللَّهُ

وقصص أخرى

مطبعة الاستقامة بالفاهره

مساحة لوكازياكس رقم ١٢

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

[الطبعة الأولى]

١٩٥٤

فهرس

ص	
١	١ — ملكة لمة
٨٩	٢ — وخيم الظلام
١٠٩	٣ — ريغان أفا
١٣٩	٤ — رنين الكأس
١٥١	٥ — العفو الكبير
١٦٩	٦ — صلاة الزين
١٩١	٧ — رمال
٢٠٧	٨ — جن مصور
٢٢٣	٩ — الجنس الضعيف

مؤلفات جاذبية صدقي

المطبوع :

- مملكة الله : مجموعة قصصية
رييب الطيور : قصة حوالة الأبطال
حكايات عم سند اليواب : قصص الأطفال

نحت الطبع :

- سكان العمارة : مسرحية كوميدية اجتماعية
جميلة : قصة اجتماعية من الزيف
أليس الصبح بقريب ؟ : مجموعة قصص قصيرة
الأصل الطيب : مجموعة قصص قصيرة

الإهداء

إليه

خير رفيق .

وأوفى صديق :

إلى يوسف زوجي ما

جاذبية صوفي

الصور بريشة الفنان : الأستاذ محمود كشك

مملكة الله

كانت « القاهرة » عصر ذلك اليوم تصطلي مستمتعة في بحبوحة تحت أشعة الشمس الذهبية الدافقة ، وتتأهب محاولة جهدا صده الكرى عن عيونها : فقد كان يوما من أيام شهر « فبراير » يمتاز بصفائه ، يشع دفئا لطيفا يسرى في الأوصال فتسترخى ويهددها حتى يسلمها إلى حالة تشبه الخدر الذي يسبق تلصص النعاس إلى الجفون : فسارت العربات والمركبات في الشوارع يبطء وكسل ، ونادى الباعة الجائلون بضاعتهم مرة أو مرتين ثم أنزلوا أقفاصهم عن رؤوسهم وأكتافهم ووضعوها على جوانب الطريق ، وألقوا بأجسامهم الفارهة الضامرة إلى جانبها وهم يتسمون لأنفسهم في رضا ، ويتمطون وأشداقهم تكاد تتمزق من شدة الثأوب وتتابعه ، ثم يستسلمون لنومة هائلة تقصر أو تطول . فعلى الرغم من برودة الجو كانت الريح ساكنة ، والشمس تسطع بقوة وأطراد في الزرقة غير المتناهية المبسوطة فوق الرؤوس .

جلست «ديانا» وقتئذ غَضَبِي في ركن من أركان شرفة فندق «شبرد» المزدحمة تلاحظ الغادين والرائحين ، وقد غاصت في مقعد من الخيزران آتكت بمرفقيها على ذراعيه ، على حين اشتبكت يداها تحت ذقنها ، وراحت أصابعها تنقبض وتنبسط في ضيق وعصبية ضاغطة عليها ، فتدفع شفها السفلى خارجا ، وتضيق على وجهها سماء التقبض . وكانت إحدى ساقيها فوق الأخرى تترجح في ملل وبلا غاية ، حتى إذا اقتحمت عزلتها نكتة خشنة أو ضحكة عالية أطلقها أحد أصدقائها المحيطين بها هوت «ديانا» بقدمها على الأرض متبرمة في احتجاج صامت . ويمز على وجهها اكفهرار خاطف مرّ سحابة شفاقة على وجه القمر . وأخيرا ضمت ركبتيها إحداها إلى الأخرى ودفعت بهما نفسها بمقعدها بعيدا عن المنضدة التي اجتمع حولها جميع أعضاء الفرقة الغنائية التي تنتمي إليها .

لقد ضاقت الليلة بهم ذرعا على قدر حبها لهم . فلم يكن مراجعها معتدلا لاحتمال هرجهم وهذرهم . كانت تشعر بملل وتعب . وكل يعرف معنى شعور «ديانا» بالملل والتعب . اختلسوا نظرات حذرة إليها يقيسون مدى مللها ويستشفون نوعه . فلما أعيهم الحيل في كشف كنه حالتها ، اتفقوا على أسلم الطرق ، وتركوها

على هواها وحدها ، إذ قدروا أنها على وشك الإصابة بنوبة
من الصداغ القاسى الذى يرهقها بين الفينة والفينة ويثقل عليها
ولا يتركها إلا وهى نصف عمياء من الألم تلهث وتتصبب عرقا .
وفى عدا تلك الأزمات كانت « ديانا » دائما هى « ديانا » المرححة
المضحكة الطروب التى لا تحمل هما أو بالحرى لا تتحمل . تنحنى
إذا ما سدّ القدر لها ضربة فتخف حدتها أو تمر من فوق رأسها
بسلام . فتلقى « ديانا » بنفسها لهفى فى أحضان الدنيا فرحة
متشوّقة ، وتواصل حياتها ثانية بحيوية وإقبال عظيمين يلهمان
من حولها مثلهما . حتى فى ساعات حرجها عندما تفتح كيس
نقودها لتدفع ثمن سلعة اشترتها ، أو لتؤدى دينًا فات ميعاد أدائه
وتتقدم عليه العهد . فتجده خاويا لا يحوى مليا . لم تكن لتفارقها
ابتسامتها الجذلة ولا روح الدعابة الماثورة عنها . فتتخلص بظرف
وكياسة وتنزلق من بين فككى الموقف انزلاق السمكة من يدى
صائدها . كان إفلاسها الدائم موضع مرحها ومخبر خريتها .
لم تكن المسائل المادية لتشغل بالها . ولم يكن اهتمامها بالمال
إلا بقدر حاجتها إليه لساعاتها . كانت بوهيمية النزعة قلبا وقالبا :
بشعرها الغزير المتبدل فى حلكنه ، ووجهها ذى القسبات الشرقية ،
وبشرتها التى تنافس قلب زهرة متفجرة ندية . وعينها التى جمعت

بين ضدين : جنة بخضرتها الماؤحة بالنعيم ، تضطرم في أعماقها نار تلسع القلوب وتلاظى الأرواح .

كانت عيوبها المتعددة محتملة هيئة : طيش وإسراف وسرعة غضب . ولكن أكبرها الذي شهّر بها وكان نقطة الضعف فيها والثغرة التي تمكن حسادها من تسديد سهامهم خلالها ، هو الاندفاع وراء نزواتها كمرافقة لا تفقه من شؤون الدنيا شيئاً . فعلى الرغم من سنيها الثلاثين كانت لا تقوى على الحد من رغائبها ولا كبح جماح غرائزها ، ولو خرجت بها من العرف وأبسط أصول الأدب واللياقة . فطار صيت استهتارها ، وتنوعت مغامراتها ، وتعددت صبهواتها التي كثيراً ما انتهت بفضيحة أو ضجة في أكثر من بلد من البلدان التي حطت فرقتها بها الرحال في أسفارها الكثيرة .

ومع كل ذلك كان لها قلب خير ينبض بالمشاعر الحية ، ويفيض بالعطف على زملائها ، وعلى كل من يتحایل على العيش بشق النفس . فتَهَب ما لديها لأى منهم في أى وقت . وكثيراً ما توقفت في عرض الطريق ، وقد عاق بصرها بفنأة نحيلة شاحبة الوجه تبيع وردا ، أو تعرض أوراق النضيب ، وتجاهد في جذب المشتريين بابتسامة آملة مطبوعة على فمها قد ترهقها وتضنيها أكثر

من تجوالها بالورق ومن المما كسة في البيع ، فتعطل «ديانا» من معها حتى تشتري كل ما تعرضه الفتاة دون استثناء ، وتسخر في العطاء ، ثم توزع ما اشترت عليهم . كانت العجوز المجدة أو الرجل العامل أو فتاة كذلك تخطف لقمتهما قسرا يوما بعد يوم من بين مخاى الزمن الضنين بها ، تلس الوتر المرفف في قلب «ديانا» ، فيهتز ، وتتجاوب أصداؤه بين جوانحها ، فتفيض من ذوب روحها قبل كسبها الشيء الكثير .

ولكنها كانت من جانب آخر دلوله متقابة ، تنبرم إذا مرَّ يوم كسابقه ، تحب التغيير وتعشق التنقل وتهوى المفاجآت ، كالفراشة ما تهبط على زهرة - وإن كانت أنضر ما في خميلة - حتى تهيم باحثة عن غيرها ولو بين الحشائش . لا تنفك تبحث منقبة عن جديد يرضى عطش نفسها أو يملأ فراغ قلبها أو يشبع جوع روحها . سواء تَمَحَّض ذلك الجديد عن رحلة أو ثوب أو لون طعام لم تذوقه أو رجل . . . تفتح آذانها ووعيتها جيذاً عن اليمن وعن الشمال لالتقاط أى وصف لمكان لم تزره أو قصة لم تقرأها أو شعور لم تجزبه . إذا أعوزتها النصيحة تفتق ذهنها هي عن كل غريب شاذ وإن اشتط في شدوده . وكان يعترها ضيق بسبب وبدونه أحيانا جمه ، قد يستمر أياما أو يعمر ساعة كسحابة صيف رقيقة

تطوح بها نسمة ناشطة وتبخر إذ يتخللها شعاع النور .

كانت «ديانا» في إحدى حالاتها تلك الغامضة المستعصية حتى على فهمها ، عمر ذلك اليوم من أيام «فبراير» الدافئة النادرة . وكانت شرفة الفندق الشهير تموج بوفود السياح والتراجمه وتغص بالباشوات والشبان الوارثين عن جدّة ، محبّي الجمال الأجنبي . يفتل البعض الشوارب المصبوغة المقصّصة ، ويمسح البعض الآخر على الشعور الناعمة المنمقة ، والجميع يتبخترون جيئة وذهابا ، وراءهم لا تستقر مكانها كأنما ركبت على لولب من كثرة الالتفات يمنة ويسرة ، علّ العين تقع على واردة جديدة أو شاردة فاتنة .

وكان زملاء «ديانا» كثيرى الصخب والجلبة يثرثرون بلغتهم الفرنسية في وقت واحد وصوت عال . يتفهقه أحدهم حتى يكاد يستلقي على قفاه وهو يضرب أخاه على ذراعه معبرا عن إعجابه بالملحة التي ألقاها . على حين يتعثر آخر في إنجائزيتة الركيكة وقد مال بمقعده إلى الوراء يناقش من فوق كتفه جارّا لهم على المائدة المجاورة . على حين يفخر ثالث بلفظ عربي التقطه من بائع جائل أو ماسح أحذية ، ويظل يكرره بمناسبة ودون مناسبة حتى يضح رفقائه منه ويمجوا سماعه ، فيتكاثروا عليه

يملئون فاه بفضلات الخبز المتناثر على منضدتهم ويسدونه ، فتعلو
صرخاته المكبوتة الضاحكة وهو يستنجد ويركل بقدميه الهواء
ويشير بعينه وذراعيه أنه لن يعود إليه البتة . فلا يائنون
ولا يهنون ويخزون في جنبه زيادة في التشكيل . فيخرج منديله
الأبيض ينشره أمامه ملوحا به معلنا استسلامه . ثم يتماوت
ويغرغر بحلقه محملا محولا بصره ؛ ولسانه متدل ، فينفضون
من حوله ضاحكين في صخب ويلتفتون لسواه .

وقال رجل منهم قصير القامة ممتلئا يضيّق المرح عينيه ويشقّ
فمه عن ضحكة جذلانة وهو يوجه حديثه إلى « ديانا » :
« أى ديانا ! ما هذا السكوت يا صغيرتى ؟ ما الخبر يا أجهل
موردة ؟ أراك اليوم ذابلة . ترى ، أيرهقك حرّ الشرق ؟ » .
وأدار عينيه النفاذتين مشيرًا إلى الدنيا حوله .

فصاح به آخر طويل نحيف يدعونه « جاك » وهو يتقمز واقفا :
« أف لك ! حرّ الشرق ! أتسمى هذا حرّا ؟ » ورمق
« موريس » السمين بنظرة ساخرة : « هذا دفء يا غبي ! دفء
يشير دماء الشباب ويجعلهم قلقين هكذا ، ولكن في نظرك أيها
الخنزير المعلوف حرّ مرهق لا يطاق يذيب الدهن عرقا يتصبب به
لحمك ! آه يا إلهي ! » .

وضرب جبهته بكفه فى حركة تمثيلية دراماتىكية ، وألقى بنفسه على مقعده ثانية . فصفق « موريس » السمين بشدة وقال :
« مرحى ! مرحى ! حديث لبق والله أيها الجميل ! خطبة أخرى كهذه قد تلفت إليك نظر « ديانا » ! إنك تحاول جاهداً منذ زمن بعيد يا صغيرى المسكين دون جدوى ! » وتهد بحرقة : « أنت تستأهل بسمة على الأقل من الشفتين النارييتين إن لم تكن قبلة . أليس كذلك أيها العاشق الخائب ؟ » .

ومال على المنضدة يبطنه المكور يخرج لسانه القصير السمين فى وجه « جاك » الغاضب .
فضج الآخرون بضحك أهوج حاد . فقد كان « موريس » ينجح دائماً فى هزّ مشاعر الجمع وتسليتهم كلها أشار إلى حادثة القبلة المسرحية التى تبادلها « جاك » و « ديانا » ذات مرة ووضع فيها « جاك » من الشعور والحرارة أكثر مما تتطلبه المسرحية ، فأثار أعصاب « ديانا » حتى نسيت نفسها وصفعته وهما فوق المسرح صفة كانت موضع تنادر أفراد الفرقة زمناً . وكان « موريس » يقوم بحركات تمثيلية معبّرة وهو يلقي روايته للمرة الألف :

« وبينما المسرحية فى أوجها وأنا واقف وراء « الكواليس » ممسك بحبال الستار ، سمعت فجأة فرقة كاسعة سوط . نظرت فإذا

« جاك » الجميل خارج بحر رجائه وخذه الأيمن الذى أعرفه أصفر
مورّد وموسوم بخطوط عرضية شديدة الشبه بأصابع اليد ! ،
ثم تنحى بمغزى واستطرد : « والحق يقال يا إخوانى لقد أضفى
هذا اللون الوردى الجديد على وجهه بهاء ، حتى تمنيت لو استطاع
جلب مثله لخذه الآخر ! » .

فشارت عاصفة هوجاء من الضحك المجنون ثانية يقودها
« موريس » نفسه ، وهو يضرب فخذه بذراعيه ، ويقفز طربا ،
ويهز رأسه يمينا وشمالا .

ثم أباح أحدهم الساقى الزنجى مارا ، وعلى كفه صينية تكدست
عليها معذات الشاى وأطباق الحلوى والفطائر ، فصاح :
« وَيكَ يا ساقى ! » .

فلما لم يسمعه تتم : « وَيح لهذا الزنجى ! » .
فلما تنبه الساقى له واستدار نحوه يتسم مستفهما ، وأسنانه
الناصعة البياض تبرق وسط السواد المحيط كسنا الأمل فى حلقة
اليأس ، قال له : « أسعفنا بمزيد من البيرة وربك ! » .

فالتفت « ديانا » إليهم يجذبها مرحهم . ولكنها لم تشترك فيه .
فإنها ذلك اليوم لم تشاركهم شيئا : لا الشراب ولا القتال على
ما يصاحبه من عصى البطاطس الرفيعة المحمرة وحببات الفول

السودانى المملحة وشرايح الخيار الغارقة فى الزيت والليمون . لقد كانت «ديانا» تحب هذا الخيار حبا جما ، حتى كانت تسابق الجميع وتقابل الساقى وسط القاعة قبل أن يصل إلى منضدتهم ، وتخطف الصحن منه دون أن يستطيع أحد إنقاذ شريحة لنفسه . ثم تلقى برأسها إلى الخلف وتقف بالشرايح اللينة اللذيذة إلى فيها قطعة تلو الأخرى ، وهى تعوى بنشوة لتضحكهم مقلدة كلب البحر فى وليمة سمك . لم تفعل شيئا من ذلك ، ولم تجلس كعادتها على حافة المائدة بعد الغداء وتنفس شعرها وتكشف ثوبها عن ساقها واضعة يداً على خصرها وتغنى أغنية بوهيمية من أغانى أوباش «باريس» أو أخرى فاضحة من نغم كاباريهات «نيويورك» يصاحبها «جاك» على «هارمونيكا» التى لم يكن يتخلى عنها أبداً ، بل يحملها دائماً أينما ذهب فى جيب سترته ، ويخرجها حينما استقر به وبرفقائه المقام ، ويظل يعزف عليها لنفسه نغمات رقاقا لا تكاد تسمع ، وعيناه من فوق يديه المضمومتين إلى فيه تلاحظ كل ما يجرى حوله ، حتى إذا أومأت إليه «ديانا» اعتدل فى جلسته وانخرط فى العزف يتابعها فيما تغنيه .

كانا زميلين منسجمين - هو و «ديانا» - فى العمل . فكأنما شحنت موسيقاه الهيمانه بسنان دقيقة تحز شياطين كيانهما .



فكأنما شجعت موسيقاه الهيماء بسان دقيقة تخر شياطين كيانها

فكانت إذا ما سمعتها ارتعش بدنهما وتقلصت يداها في حجرها ، ثم انطلقت تشدو وتبدع حتى تنفر عروق رقبتها المرمرية وتقدح عينها ذواتا البريق الفيروزي الخاطف لها يتحدى سامعها ألا يغزوا صرعى جمالها المثير ، وألا ينتشوا بروعة صوتها الذهبي ذى البجة التى تشوبه أحيانا متسالة تلوّنه كحمرة الحياة فى خد عنراء .

فيكان الرجال من النزلاء فى مرورهم داخلين أو خارجين من الفندق يقفون بغتة أمامها يحملقون فى وجهها ، مصوبين إليها نظرات وُلهى ، وينتظرون ساعات يحذرهم أمل ويدفعهم شوق . على حين يطاق الشبان منهم صفيرا طويلا إعجابا وتحية .

أما النساء - العجائز منهن بخاصة - فكان يشحن بوجوههن جانبا فى امتعاض ويرمقنها استنكارا متأففات ؛ حتى إذا مررن أمامها تحسرن بصوت عال على الأخلاق - أخلاق المغنيات الفاتنات - التى أفسدتها الحروب وانزلت بصاحباتها إلى الحضيض . وردا عليهن كانت «ديانا» تنفجر ضاحكة فى وجوههن الزاهلة . فيهرولن بعيدا وهن يشمخن بأنوفهن ترفعا : فتشيعهن «ديانا» بأغنية بذية من أوقح ما كتب عن الحب المكشوف الفاضح تحمر لها أقفيتهن العجفاء تحت الشعور الرمادية المعقوفة إلى أعلى .

فعلت «ديانا» ذلك - وأكثر - كانت روح الفندق وقلبه
النابض . حيويتها دافقة تترع فتغدق بالفائض حولها يمينًا وشمالًا .
والكنها يومنا ذلك كانت غيرها بالأمس ، طال انطواؤها على
نفسها ، وازداد عبوسها بتقدم الوقت ، وندر كلامها . صدت
كل من حاول التقرب إليها من زملائها ليسرى عنها بنظرة
ألزمته مكانه .

فلما جاء الحاج «سليمان أبو شعبة» - الترجمان الذي اختارته
الفرقة رفيقا ودليلا - بعد أن أدى صلاة المغرب ، رفعت «ديانا»
بصرها إليه وابتسامة تتلاعب على شفيتها لأول مرة ذلك اليوم .
كان الحاج «سليمان» شيخا خفيف الظل شديد الذكاء يزيل
بجلسه الهموم عن القلب . يعرف متى يعي ما يقال ومتى يدعى
الصمم ومتى يتكلم ومتى يحمل به الصمت وماذا بالضبط يقول
حين يجب القول . أحبه كل منهم حبا صادقا ؛ فسادوا يرونه حتى
قفزوا إليه يعانقونه ويخطفون عمامته ليميلوها على رؤوسهم الشقر
ويقلدوه في مشيته .

ألقي الحاج «سليمان» نظرة خاطفة شملت الجمع أنبأته بالجو
السائد . فسحب مقعدًا في سكون قربه من «ديانا» وجلس وهو
يبتسم محيا ويقول في فرنسية طليقة صحيحة :

« مساء الخير يا بنت الشمس ! كيف حال أبيك القمر اليوم ؟ » .
فابتسمت لدعابته ، وتجاهل هو انقباضها وشحوب وجهها
الظاهر ، واستطرد :

« جئت أدعوكم الليلة إلى حفلة لم تروا مثلها بعد ! » .
فعلت همهمة التأسف والاعتذار ، وتباكي « مورييس »
السمين صائحاً :

« أواه يا حاج « سليمان » ! أواه ! مساكين نحن والله ! نأتى
معك ؟ وماذا نفعل بالجنود المنتظرين ؟ لا بد من الترفيه عنهم
كل ليلة كما تعلم ، نحن والله أشد ما نكون حاجة إلى ترفيه أنفسنا ؛
ولكن ماذا يستطيع المرء منا أن يفعل وهذا مطالب عيشه ؟ » .
أما « ديانا » فاستدارت إلى الحاج « سليمان » وقد برقت عيناها
ووضعت يدها على ذراعه :

« سأتى أنا معك يا حاج : لا أذهب إلى العمل الليلة ! » .
فبهت زملاؤها وهتفوا معا :

« ماذا ؟ لا تذهبين إلى العمل الليلة ! كيف ؟ » .
فأجابت بهدوء : « كذا » .

— « ولكن هذا محال ! » .

— « لا محال عندى : قلت لا أذهب ولن أذهب ! » .

ونظرت إلى الحاج « سليمان » ووجتها متوردتان . وقد
تبذل حالها وذهب عنها الملل :

« خبرني يا حاج : أى حفلة ستكون ؟ أزواج أم ختان ؟
لقد حضرناهما ذات مرة ! » .

فأجاب الحاج وهو يعد حبات سبخته الكهرمانية :
« كلا يا بنتى : لا هذه ولا تلك . بل هى حفلة ذكر نذرت
وفاءها إذا ما نال ابنى « عبد الله » شهادته الأزهرية » .
فاتسعت حدقتها دهشة :

« ألك ابن ؟ لم تذكر حرفا عن ذلك خلال الثلاثة الأشهر
التي عرفناك فيها ! » .

فهر الحاج « سليمان » رأسه بتودة :
« لم أجد مناسبة ولا ضرورة للتحدث عن نفسى وأهلى
ولم تسألونى أتم فسكت » .
فسأله « ديانا » مجاملة :
« وكم يبالغ من العمر ؟ » .

وتطرق بهما الحديث وتشعب . ونسيا من حولهما .
فتملأ « جاك » وقد ضايقه عزم « ديانا » على التخليف فقال :
« ديانا يا عزيزتى ... أمّا تخافك فستحيل . لا بد من ذهابك ! » .

فرمقته بنظرة ساخرة ، وقد ارتفع حاجباها في اهتمام
مصطنع وتهكم :

« لا بد من ذهابي ؟ بربك أخبرني ، من يُكرِهني على ذلك ؟ » .
واكفهر وجهها فجأة واربد ، وصرخت تنفث فيه سموم
ضجرتها المكبوت طوال اليوم :

« لا تنفك أيها الرجل تخزني بأوامرك وتثير أعصابي
بمستحيلاتك كأنك أخى أولك بي شأن . ألا تستطيع منع لسانك
عني - أم هذا مستحيل هو الآخر ؟ » .

فتداعى « جاك » وشحب وجهه ، ولكنه تميم ليستر خجله :
« كل ما أود معرفته بماذا نعتذر عنك ؟ ماذا نقول لهم ؟ » .
فأخرجت « ديانا » بكل برود مرآة صغيرة من حقيبة يدها ،
وراحت تصلح من شأنها لحظة ، ثم نهضت ويممت شطر السلم
تهبطه إلى الشارع وهي تجر الحاج « سليمان » وراءها من كم قفطانها .
وعلى آخر الدرج التفتت وصاحت من فوق كتفها :

« قل لهم إني مت أو انتحرت من ثقل دمك ! » .

وفي الطريق لوح الحاج « سليمان » لسيارة أجرة تقبلانهما
إلى وجهتهما ، ولكن « ديانا » أسرعت تنزل يده المرفوعة قائلة :
« لا لا يا حاج « سليمان » - أرجوك ! لنأخذ الترام إلى غايتنا .

أريد أن أحيَا الليلةَ في جَوْ وطني - جَوْ يختلف تمام الاختلاف
عَمَّا أَلِفْتُ ، علَّ رُوحِي القلقة المتمردة تهدأ وتسكن : تخيَّل أني
امرأة شرقية من قريباتك وعاملني بالمثل .

فوافقها الحاج « سليمان » باسمًا ، وهو يهز رأسه في فهم وتقدير :
« لك ما تسألين يا بنتي : أول ما أمرك به إذن هو أن تستري
وجهك بأى قناع » .

فصاحت : « هو ذاك ! » .

وألقت بوشاحها الحريري الشفاف على رأسها ، فانسدل
يخفيه كالنقاب .

فسار أمامها وتبعته مهرولة عن كعب .

وفي حيّ « الحسين » حَتَّى الخطى مخترقين الحارات الضيقة
والأزقة المتشعبة . وطرقت سمعهم همهمة ولغظ ازداد علوًا ،
ووضوحًا كلما توغلت « ديانا » ورفيقها في صميم الحيّ . لم يقابلا
في بداية طريقهما إلا أفرادًا قلائل متعثرين ، بين امرأة عجوز
تعرج جنب حائط ، وطفل يلهو وحيدًا على عتبة دار ، ومجد
ما زال قائمًا يطوى بضاعته ويحشرها حشرًا في دكانه الضيق الذي
قد تخطئه العين في عتمة المغارب وتظنه شقا . وكانا كلما تقدما
في سيرهما ثقلت خطواتهما لتكثُل جموع الناس تواليًا ، حتى إذا

بلغا بشق النفس ساحة المقام « الحسينى » المضادة بمصاييح تترجح
على أعمدة خشبية لم يجدا موضعا لقدم . فقد احتشد كل أهل الحى
والجيرة بين متفرج ومشارك فى التكبير والتهليل .

وأطالت النساء ساكنات البيوت المحيطة من النوافذ . على
حين احتلت أخريات ظهور عربات خشبية مستطيلة تجرها حمير
أو بغال وقفت بهن فى قافلة ترتكن إلى حوائط الساحة فى نصف
دائرة كبيرة : تربعن يثرثن وسط بنات يافعات ، وأطفال
نيام ، ورضع صارخين : تخرج أم أحدهم ثديها له فيلقمه لحظة ،
وما تكاد تطمئن إلى هدوئه ورضاه ويرأها هو تلهو عنه بالتفرج
أو الحديث مع جارة حتى انفجر باكيا يضرب صدرها بقبضته
الصغيرة لتنظر إليه ثانية : فتلتفت نحوه لاعنة متبرمة ترمى نفسها
بالعته إذ أنجبته ، ثم ترفعه من ذراعه وتهوى به على شقه الآخر ؛
فلا يهن ولا يلين ، فتضيق به أيما ضيق ، وربما ضربته على فخذه
ليسكت فتشتد حدة بكاء الجنى الصغير ، ويعنف عويله ، فتعود
المسكينة تهدده وتقبله طالبة منه الصفح دون جدوى . فتلطم
خديها وتكشف ملاءتها عن رأسها وترفع بصرها إلى السماء
داعية بالموت على نفسها مرة وعليه مرة أخرى . حتى ينقذها
من هذا الكرب بائع يحمل أصابع وحلقات من الحصى الحمراء

والصفراء والخضراء مخططة وغير مخططة على لوح من الخشب
ينحتر به بين العربات : يغازل بنتا نافرة ، ويسمل ويصلي
على النبي باسمه وهو يحجب نداء أمتها السمينه البيضاء ، ويبيع أخاها
الطفل إصبعا أو إصبعين ، فينجيه عن طريقه آخر يدفع بتودة عربية
عليها إناء نحاسي هائل الحجم أهيل فوقه تل من الأرز والعدس
المطهون معا ، وترتفع بعنقها إلى جانبيها زجاجة الخل والتوابل التي
يرش منها البائع على وجه الخليط في صحفة الآكل قبل أن يأكل .
ويفرق بائع العرقسوس أو شراب الليمون بصنجه
النحاسين مناديا وهو يغمز بعينه :

« هنا الخير الأصلي ! ارو قلبك يا جميل من عندى ! أنا
بياع الشربات ! » .

فتجلى لجل ضحكات النساء من كلامه . فيشهرق شهقة عالية ،
ويتمايل كأن ذلك عن سكر من حلاوة ضحكاتهن ، ويقول :
« وعدى ! يا شربات ! أنا خدام النبي ! » .

ويرفع حمار إحدى العربات رأسه عن مخلاته فيلح أمانا
رشيقة تقف عن كذب تمط رقبتها نحوه وهي تضرب الأرض
بأرجلها ضربا خفيفا : فتبهج عواطفه وتثير كوامن نفسه ، فيعلو
نهيقه وشجيجه بين الأصوات . ويحاول الاقتراب منها وحك

رأسه برأسها . فتهتز العربة بالنساء وتميل . فيصرخن مدهورات
ويمسكن برقاب بعضهن البعض مولولات مستغيثات بالسائق
الذى يكون مفترشا الأرض فى جانب مع رفقاءه يشدون أنفاسا
عميقة من قصبات « الجوزة » . ويحتسون أكواب الشاي
الأسود : فيقفز مسرعا ويعدو إلى حماره لاعنا يضربه ويخزه
وهو يحضه على التزام الحشمة كأنما هو من بنى البشر يفقه
توبيخه وقذفه بقلة الحياء والأدب . ويسود السلام مرة ثانية ،
ويعود السائق إلى زمرة شاربى الشاي ، وتتهجد النساء بارتياح ،
ويواصل كل متعته على طريقته .

وكان الوافدون على الساحة المفروشة بالحصر لا ينقطع
سيلهم . حتى اكتظ بهم المكان على سعته . منهم الشيخ والشاب
والياfec ، المعمم والمطربش ولامع الشعر ومصطفه تحت الطاقة
الشبكية المائلة : وإذا دقت النظر فى وجوههم تبينت اختلاف
جنسياتهم من سخناتهم : فقد دعا الحاج « سليمان » بعض معارفه
الكثيرين من صينيين وهنود وتونسيين : تجار وطلاب علم
بالأزهر الشريف زاملوا ابنه سنين . وأصحاب مهن أخرى
استوطنوا مصر من زمن وتوطدت الصلات بينهم وبين الحاج
« سليمان » . كان الرجال منهم يشق بكتفيه طريقا يحشر فيه نفسه

ويظل يجاهد حتى يصل إلى دائرة المحتفلين . فيفسحوا له مكانا
بينهم على قدر المستطاع . وهم يردون تحيته بأحسن منها . فيخلع
نعليه ويصلي ركعتين لصاحب المقام الذى يجتمعون فى ساحته .
ثم يضع إحدى نعليه فوق الأخرى ويجلس فوقهما ، وهو يلتفت
إلى من بجانبه قائلا :

« أهلا وسهلا ! كيف الصحة والبيت ؟ » .

فیربت الآخر صدره شاكرا دون أن ينبس ببنت شفة ،
إذ يكون منهمكا فى التسبيح . فيقلده القادم الجديد ، ويكرر معه
أو وراه آيات الشاء على العلى العظيم والتكبير لآسمه الجليل .
أوصل الحاج « سليمان » « ديانا » إلى منزله المطل على ساحة
المسجد « الحسينى » وسألها وهما على عتبة الدار :
« أتعبت يا بنتى ؟ إن الزحام شديد ! » .

وابتسم فى ظلام الدهاليز رضا وغرا . فصاحت بحماس :
« بتاتاً لا ! » وجعلت تجيل بصرها حولها كي لا تغافلها فائتة
دون أن تملأ منها ناظرها ، وقد برقت عيناها بنار خضراء دكناء
أضفت من حرارتها على خديها تلهبهما بدم قان .

فانفرجت أسارير الشيخ وسار أمامها يقطع الطريق ميمما
شطر السلم الحجرى العتيق المضاء بفانوس صغير يرتجف على

مسمار في ركن من أركانه ، ويرسل نوره بهمة لحظة ثم ترقص
ذبالته بجنون وتخفت ، حتى تكاد تنطفئ إذا ما داعبتها نسمة عابثة
مرقت من الباب أو تلصصت إليها من عل . فتعثرت قدم «ديانا»
وكادت تسقط : فتوقفت مكانها ويدها على الدرايزين الخشبي
تنتظر مترددة . فأخذ الحاج «سليمان» برفقها يسحبها برفق
ويحضنها على الصعود ، قائلا :

«استندى إلى ذراعى يا بنتى . فهناك بضع درجات تأكلت
حافاتها أعرف كلا منها كما أعرف أولادى : فأجنبك التعثر
وأوصلك بسلام وأعرفك بأهل بيتى : وإن لم يكن لديك مانع
تركتك بعد ذلك فى صحبتهم ونزلت أنا إلى ضيوفى .»

وقبل أن تفتح «ديانا» فمها أردف بسرعة :
«ولكنى أرجوك إذا ما احتجت شيئا أن ترسلنى «عمر»
الصغير لندائى فألبى طلبك فوراً !» .

فابتسمت «ديانا» وهى تضغط ذراعه شاكراً :
«أنت كريم القلب يا حاج . ولكنى لن أبعث فى طلبك حتى
تصعد أنت من نفسك بعد انقضاء الحفل ، إذ أنى على ثقة
من تمضية سهرة بهيجة مع أهلك !» .

كان منزل الحاج «سليمان» من منازل العهد الغابر بكل

خصائصها . بنى بكتل من الحجارة الثقيلة . وتندلى وسط بابها الزان يد حديدية ممسكة بكرة علق فوقها تمساح محنط لجلب الرزق . وما يلج الزائر داخلا حتى تقابله رائحة بخور خفيفة لا يستطيع تحديد مكانها بالضبط تنبعث محومة مرحة . ويظلم المدخل حتى يضطر المرء إلى التريث لحظة ولو كان في وضوح النهار ، حتى إذا تعودت عيناه العتمة تبين زيرا يكمن جائما إلى اليسار فوق مقعد خشبي له ثغرة مستديرة .

ويتكون المنزل من طبقتين أجر الحاج « سليمان » الأولى منهما غرضا مستقلة لعائلات فقيرة لا تدفع له الإيجار في ميعاده أبداً حتى تجمعت عليها مبالغ كبيرة . ولم يكن الحاج يطالبها قط بل يترك لأربابها دفع ما يتحصلون على جمعه بين الفينة والفينة وقتما يتيسر لهم ذلك . لحفظ النساء له جميله وفضله ، وجعلن من أنفسهن خادמות بالتوالى لعائلته : يشتري ما يلزم من الخارج ويقمن بما يلزم من الأعمال في الداخل من مسح سلم وغسل ملابس إلى ظهور الطعام وتنظيف الصحاف .

صعد الحاج « سليمان » برفقة « ديانا » إلى الطبقة العليا إذن . فقابلتهما شابة سمراء حلوة القسمات أبرز ما فيها حاجبان رفيعان في استقامة ، وعينان كحيلتان شديدتا الجاذبية تتكاثف أهدابهما

الطويلة عند الخافتين حتى يخيل للرأى أنهما مغلفتان . فأنحنت وقبلت يد الحاج الذى جذبها بسرعة وهو يستغفر الله من فتنه الغرور . ثم تنحّت عن طريقهما وأشارت بذراعيها تدعو « ديانا » إلى الدخول .

« أهلا وسهلا ! زارنا النبي ! » .

فابتسمت « ديانا » تردّ التحية التى لم تفهم ألفاظها . وانكبتها تبينتها بالبديهة من إشراقة وجه الفتاة وحركاتها . ثم جاء راكضا من الداخل صبىً جميل الصورة يبلغ من العمر حوالى الخامسة طويل الشعر شيئا ناعمه ، مارأى الحاج حتى اندفع نحوه يحتضن ساقيه بذراعيه السمينتين ، وقد رفع وجهه إليه فى حب وعبادة عميقين .

فربت الحاج الرأس المجدّد ، وقال محدّثا « ديانا » :

« ذاك عمر الصغير - حفيدى ! »

وأخذه من يده يقربه منها وهو يهمس إليه :

« سَلِّمْ على السيدة يا ولد ! هى ضيفتنا الليلة ! » .

فالتفت « ديانا » بسرعة إلى الشابة السمراء وقد استنتجت

صلة القرابة :

« هى أمّه إذن ؟ زوجة ابنك ، أليس كذلك ؟ » .

فأوماً الحاج إيجاباً واستطردت وهي تتفّرس فيها وتتأملها
بعين الفئانة على ضوء المصباح الوحيد بالحجرة :
« تالله إنّ جمالها نادر يسائر بعضه بعضاً يكمله ويظهر إبداع
صياغته : وى كأنها قصيدة مدبجة الأبيات أو قطعة موسيقية
منسجمة النغمات : وجه كأنه محيا حورية أفلتت من الفردوس ،
ورشاقة أعضاء مياسة كأوتار كان تماوج من نشوة حسنها : نموذج
فى بديع صيغ بدقة ! » .

وكان الحاج « سليمان » يتسم ويترجم للشابة ما تقوله « ديانا »
بين وقت وآخر . فيتضرج وجهها وتطرق خجلى ويزداد ارتباكها .
ثم سألت « ديانا » الحاج : « وما اسمها ؟ » .
فقال : « بدرية ! » .

فردت وراءه : « بدرية ، بدرية ! اسم له رنين موسيقى ووقع
على الأذن ترتاح له ؛ ولكن قل لى ما معناه ؟ » .
فهز الحاج كتفيه فى حيرة وزم شفّته مفكراً ، وأخيراً قال :
« إنه اسم مشتق من لفظ « بدر » ! » .

فوضعت « ديانا » يدها على قلبها وأدارت حدقتها حولها ، ثم
ألقت بنفسها على مقعد قريب فى حركة دراماتيكية ، وتصنعت
الإغماء من قوة الافتتان ، وصاحت :

« صدق والله من شئناها ! » .

فضحكوا جميعا ، وزال تهيب « بدرية » وضمت ابنها في أحضانها ، ووقفت ترمق « ديانا » في سرور .

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

جلجل صوت المؤذن عاليا يدعو إلى صلاة العشاء : فهرول الحاج « سليمان » خارجا ، وتتمت « بدرية » يمتزج صوتها بلثغة عمر الصغير :

« سبحان الله : الدوام والعزة للعلّي العظيم ! » .

ثم قاما وصليا ، هي أمامه على سجادة صغيرة من الخوص الأصفر والأخضر ، وهو وراءها وقد بسط منديلا محلاويا وراح يقلد حركاتها بحجة واهتمام .

وجلس « ديانا » تلاحظهما باسمة لما في منظرهما من طرافة جديدة عليها .

وضمت « بدرية » كفها - وقد فرغت من صلاتها - تستغفر الله وتسأله الرضا ودوام النعمة . وفعل مثلها « عمر » . ولما انتهيا قالت لهما « ديانا » :

« كآني بمنظركما أتأمل صورة للعدراء « مريم » وابنها دببت فيهما الحياة ! » .

فلم تفهم « بدرية » مما قالته إلا الأسم . فصاحت :

« سيدتنا « مريم » ؟ عليها السلام ! » .

وأخذت بيد « ديانا » تحثها نحو الشرفة الفسيحة ذات المشربية
المفروشة بالأرائك والوسائد الوثيرة . ودفعت إلى الخارج
« شيش » إحدى النوافذ الصغيرة الكثيرة العدد . وأشارت إلى
« ديانا » أن تقترب وتطل على القوم .

كانت الساحة تموج بالمدعوين وقد هبوا كرجل واحد يجيئون
دعوة الداعى إلى أداء فريضة الخشوع لذلك الحق . فساروا
جماعات ووجدانا نحو المسجد والبيوت المجاورة ليتوضأ منهم من
أراد ويعود فيأخذ مكانه وراء الإمام . ثم خفت المهمة
وخرس كل صوت . وساد سكون مطبق كأنه صدر عن إشارة
ساحر ، وبدأت الصلاة . انحنت الرؤوس وعنت الوجوه وخشعت
الآبصار ورجفت القلوب فى الصدور وهفت النفوس بين
يدى الله طامعة فى العفو والرضا . وقد وقف المصلون صفوفاً
طويلة منتظمة وتساوت مراتبهم وأعمارهم . يقومون معاً
ويتخزون سُجداً معاً كالبحر المتلاطم فى تماوجه . مدوياً صوتهم
الجهورى بترديد :

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

ثم ركعوا جماعة باسطين الأكف رافعين الوجوه نحو السماء ، يدعون تضرعا وخشية ، مبتهلين في توسل ، يسبحون الله ويثنون عليه ، مرددين أسماء الحسنى وراء إمامهم : فتنتطق الكلمات من حناجرهم قوية إلى العلاء ، وما تزال ترق وتهن متضائلة كلما ارتقت تسمو مصعدة نحو العلى العزيز كأنما تشفق من رهبة القرب . حتى تصل همسا ضارعا إلى السميع المجيب تتلوى منكسة الرأس في تذلل متقربة في زلفة إليه .

فشعرت «ديانا» وهي تستمع إليهم وترقبهم باهتمام متزايد ، تحصى حركاتهم ولا تفوتها سكرة ولا لفتة - شعرت بالدم يندفع إلى رأسها يلهبه ويثقل الجفون وينفر العروق نابضة ثم يغيب ثانية . . . فسرت قشعريرة من أسفل شعرها إلى عمودها الفقرى ، وارتدت عائدة تبعث بإشعاعات إلى كتفها كالتلوجات الكهربائية . فأخرجت «ديانا» رأسها متحمسة من النافذة على شئنا يجذ ، ومالت على حافتها حتى وسطها وقد دعمت ذقنها بكفها في الهواء تتابع القوم بنظراتها ، نخشيت «بدرية» عليها السقوط ، وربت ذراعها تنبها بلطف . فاستدارت «ديانا» نحوها دهشة كأنما نسيت وجودها بجانبها ، ثم ابتسمت وهي تسمح على جبهتها بظهر يدها كأنما تستيقظ فورا من نومها وقالت :

« لا تؤاخذيني يا « بدرية » . فلقد اندمجتُ اندماجا كلياً فيما
أمامي من مشاهد : فأنا فنانة تستجيب بروحي بالفطرة لكل جديد
ملهم صادق في حرارته وتعبيراته : ولقد بهرني ما رأيت : إذ أنى
على كثرة أسفاري أذرع بقاع العالم طولا وعرضا لم أر في حياتي
شعائر دينية معبرة كصلاتكم توحى بالرهبة من عظمة المعبود
وجلاله ، وتبعث الطمأنينة في الوقت عينه سارية إلى النفوس
لرحمته الواسعة بعبيده ومعرفته بضعفهم البشري : فالركوع
والسجود وضم الألف ورفعهما تمثيل بليغ صامت يصور أماناً
المراء ومخاوفه وخضوعه أروع تصوير . قرأت ذلك وأكثر
على صفحات الوجوه . يا إلهي ! » .

وتنهدت من أعماقها ثم أردفت وهي تضغط ذراع « بدرية »
وتدفعها لتنظر معها :

« انظري يا « بدرية » ! انظري إليهم يمسخون على وجوههم
بأكفهم بعد الفراغ من الصلاة : لماذا يفعلون ذلك ؟ لقد نسيت
أنك لا تفقهين قولي . لأستنتج أنا وأحاول الفهم وحدي :
لا شك أن عملهم هذا للتبرك ، فطهارة أيديهم الضاربة إلى الله
تستمد صفاءها من نفوسهم وهم متوجهون إليه . أليس كذلك ؟
على الأقل : هذا تعليل يرضيني ريثما أستفهم من الحاج عنه » .

وأراحت رأسها إلى « شيش » النافذة وسرحت بأفكارها بعيدا ، واستطردت تحدث نفسها :

« أئى هدوء هذا وأى استقرار يتلألأ على وجوههم التى كساها الرضا ينبعث كالنور من جباههم الملس - لا غضون ولا تجاعيد ! كأنى بهم يحطون أحماهم تحت قدمى إلههم وينسون فى مناجاته متاعبهم ، فيمسح بيده الحنون على رؤوسهم مطمئنا يستمع لشكواهم وأشجانهم يثوبنها إليه ، ويلهمهم حل عقدتهم ، وينفث فيهم الصبر والمثابرة ، فيقومون عن السجود وقد تساقط بعض نور يده على جباههم وانمحت الغضون بالسحر الإلهى . فيقبلون بروح فتية نفث فيها الله من قوته على حياتهم الشاقة المضنية التى يستخلصون فيها اللقمة من بين مخالب الزمن بشق النفس ؛ فتعجب نحن من هؤلاء الوطنيين كيف يصبرون ويصابرون على ما هم فيه من ضنك وإرهاق عيش ويتسمون مع ذلك ، ولا يزال ينبض فيهم عرق المرح والدعابة ويحيون « الحمد لله ! » على كل سؤال يوجه إليهم سواء استفهم المرء عن صحتهم أم دخلهم أم عملهم أم دأكلهم . أأست على حق فى تحليلي هذا يا « بدرية » ؟ » .

ثم تذكرت أن الشابة لن تفهم مما قالته حرفا ، لأنها لا تعرف

لغات . فاستدارت نحوها ضاحكة تنعت نفسها بالغفلة ، فماتت الضحكة على شفيتها واتسعت حدقتها دهشة .

لم يكن هناك أثر لـ «بدرية» : فقد تركت «ديانا» تسبح في عالم الفكر ، وتسلفت لتعد لضيفتها إبريقا من الشاي وبعض شرائح الكبد المشوية وصحفة من الكعك والفطائر ، وأرسلت ابنها «عمر» وراء زوجها الشيخ «عبد الله» ليصعد ويرحب بضيفتهم خلال فترة اشتغالها هي بإعداد صواني العشاء للدعويين قبل بدء الذكر .

ففوجئت «ديانا» برؤيته . فلم يقحم الشيخ «عبد الله» نفسه على وحدتها ومناجاتها ، بل تقدم حتى وسط الحجرة ثم أحجم منتظرا وحيات سبخته ترتطم واحدة بالأخرى بين أصابعه ، وهو يسبح ويرقبها باهتمام .

كان واقفا تحت المصباح المدلى من السقف بسلسلة حديدية تترجح بهوادة وتؤدة بين الفينة والفينة . وكان النور يغمره بسناه من عمامته إلى خفيه الأصفرين ، وقد تشابكت يداه أمام صدره ممسكتين بالسبحة ، وبرز مرفقاه قليلا إلى الخارج . فانبسط كما القفطان الواسعان على جانبيه ، كجناحين لم ينضما مكانهما كل الانضمام . فبدأ لعين «ديانا» المشدوهتين كأنما هو ملك هابط

على الفور من علي . وزادت هيئته الصورة التي فاجأتها توكيدا : فإن الشيخ « عبد الله » كان حديث السن لا يزيد عمره عن الثالثة أو الرابعة والعشرين وله سمة ابن الخامسة عشرة : طويلا نحيف القامة ضامرها . يكسو وجهه الجليل شحوب يكلل جبهته العالية منسكبا على صدغيه الغائرين حتى ذقنه المستديرة : وله وقار اكتسبه من طبيعة تعليمه الديني ، وصفاء نظرة ، وهدوء ابتسامة ، أضفت عليه مجتمعة طهارة ملائكية تمس شغاف القلوب أول وهلة .

فتشبث نظر « ديانا » به يلتهمه التهاما ، وحملت تفتح عينها وتغمضهما تباعا بين مصدقة ومكذبة ، تخشى أن يتلاشى كالسراب عند القرب ، أو يتبخر كالحم عند اليقظة ، فتسمرت مكانها تتأمله في تبدل بعين الفئانة وقلب المرأة .

وأخيرا ، تحرك هو : تقدم خطوتين نحوها رافعا يديه إلى رأسه في تحية وترحيب . ويقول بفرنسية صحيحة :
« مرحبا ! لقد شرفتنا السيدة بزيارتنا الليلة ! » .
وابتسم لها .

فانتفض قلبها بين ضلوعها لإشراقة ابتسامته التي أنارت صفحة وجهه الغض الصبيح كلها ، وانفرجت لها شفتاه الغليظتان شيئا في سداجة محبة .

فأجابت «ديانا» بحرارة : «أنا السعيدة بلقائك !» .

واندفعت بعواطفها الجارحة في نزوة طارئة تمد له يديها
كليهما ، ورأسها يدور وقلبها المتعشش أبدًا إلى المغامرة يطل
من عينيها .

فغض الشيخ «عبد الله» بصره إلى الأرض ، وأغفل يديها
الممدودتين ، وربت صدره معتذرًا بالوضوء عن مصافحتها . فاحمر
وجهها وعضت شفتيها وهي تنزل ذراعيها إلى جانبيها ثانية . هذا
الغلام ! كيف جرؤ ! لم يحدث قط أن استخف رجل بجمالها
- وكل الرجال عندها سواء - لا يكاد يشع نور حتى يتهافتوا عليه
كالفراشات الرعناء تحرق أجنحتها وكأنما تستعذب حرّ اللهب
فتلقى بنفسها في النهاية إلى الهلاك . أقما هذا . . . هذا الطفل !
وصرّت «ديانا» بأسنانها بحق متنبهة حواسها متيقظة غرائزها
تربص شابا كهذا للصيد الجديد . لقد تعودت أن تختار رجالها
لا أن يختاروها هم ، وجعلتها معرفتها الطويلة بهم سريعة البت
في اختيارها . ففي لحظة - وهضة عين - يهوى قلبها ويتلظى رغبة .
ولقد اختارت الآن . إنها تريد هذا : تريده بقوة . وسيأتي ؛
سيأتي مختارًا طائعًا كسابقه يستجدي نظرة ويستحلف لبسمة .
لقد تعودت أن تأمر فتطاع وترغب فتحوز .

وتميل الشيخ «عبد الله» في إحراج وحيرة . وهي ترمقه
بمضرات إعجاب صريحة تغذت إلى كل صغيرة وكبيرة فيه
واستشفت كل خلجة منه .

فلاذ بالكلام يشغلها به مطأطي الرأس :
« أتعرفين عن حفل الليلة شيئا يا سيدتي ؟ أرايت حلقة ذكر
قبل اليوم ؟ » .

فأخرجت نفسها قهراً من تأملاتها لتجيبه بشرود :
« من ؟ أنا ؟ كلا لم أعرف : حدثني أنت » .
فأشار إلى أريكة يدعوها للجلوس : فألقت بنفسها عليها تميل
على أخذها اليسرى نصف نائمة ، وتركز خدما على كفها رافعة إليه
عينين نفاذتين تنتظران .

واتخذ هو مجلساً بعيداً يواجهها على حشية من الحشايا . وقبل
أن يفتح فمه اقتحم الحاج « سليمان » عليهما الحجره وبرفقته « عمر »
الصغير وصاح في وجه ابنه لأثماً :

« أنت هنا يا شيخ «عبد الله» والقوم يسألون عنك ؟ لقد
فرغوا من العشاء وهم في انتظارك الآن ليبدءوا الذكر » .

فهب واقفاً وأوماً برأسه في اعتذار صامت « لديانا » وهروك .
خارجاً : فجلس الحاج « سليمان » مكانه في حين قفزت « ديانا »

عن الأريكة . وأسرعت إلى المشربية تطل على الشيخ عبد الله .
تخلق القوم في حمة الذكر صفين متقابلين ووقوف وسطهما
إمام المسجد الحرم يقود الجمع في ذكر الله . ويرددون قوله
بصوت أجش منخفض راتب . فلما علا بازدياد حماسهم واشتد
تمايلهم تنحى الإمام لاهثا عن مكانه للشيخ عبد الله . فارتفع
صوته الشجي باستغاثات وإتهالات يرتها على وقع الذكر ،
ففيض الأعين بالدموع خشية وتهفو القلوب مرفوعة في الصدور
نشوى طامعة في كرم ربها وعفوه : وتطلق أغاريد النساء محبة
مشجعة وهن يمسحن خدودهن المبللة .

وتسمرت «ديانا» في النافذة وعيناها معلقتان بالشيخ
«عبد الله» . ألهمت مشاعرها روعة جماله . وأشعل غرائزها بعد
مناله : تركزت حواسها وتمثلت مطالبها فيه ، فلم تر شيئا ولم تسمع
شيئا : أنساها وجوده سواه . وكفاهها عما عداه .

وإلى جانبها وقف الحاج «سليمان» يثرثر . يلقى السؤال
فلا تجيب . فينتقل بمرح إلى آخر ، ويهمس في أذنها بملحة فلا تتحرك
فيهز كنفه ويضحك هو : حتى تقدم الليل ، وانقض الحفل .
وانصرف الناس تباعا ، وخلت الساحة منهم جمعا . وأطفئت
المصابيح المستأجرة وأخذها أصحابها ومضوا . وحملت «بدرية»

ابنها النائم ودخلت به حجرتها و « ديانا » فى وقفها بعيون متلهفة
وقلب ثائر .

وهبت نسمة من أنسام الفجر أرعشتها لسعة برودتها ؛
فاستدارت خلفها لترى الحاج « سليمان » يغط فى النوم على أريكة
وقد التحف بعباءته الثقيلة .

فصاحت به تهز كتفه :

« يا حاج ! يا حاج ! أين الشيخ « عبد الله » يوصلنى
إلى الفندق ؟ » .

فأجابها وهو يقفز واقفا :

« الشيخ « عبد الله » ؟ الشيخ « عبد الله » سيديت الليلة
فى المسجد قائما يصلى بقية الليل ، فهذا نذر كما تعلمين يجب عليه
أن يوفى به » .

فرمقته بنظرة حنق ، وزمت شفيتها فى كمد ، واندفعت خارجة
من الحجرة ، والحاج « سليمان » يهرول خلفها ليوصلها بنفسه .

وطال تردها بعد ذلك على منزل الحاج « سليمان » . كانت
إذا ماهاجها الشوق وبرح بها الوجد اندفعت هاربة من حجرتها
فى ثورة عواطفها الجامحة وقتما يخزها شيطان أهوائها - ظهرا كان
أو ليلا - وانفلتت متسللة من الفندق لا تلوى على شيء ، دون

أن يتنبه لها رفقاًؤها . فتأخذ أول « ترام » يقابلها إلى حيّ
« الحسين » وتشتري في طريقها فاكهة كثيرة وحلوى وفطائر تنوء
بحملها ، ولكنها تتجلد مستعذبة النصب ، كمؤمن يتجمل بالصبر
على العذاب في سبيل عقيدته .

فكان الجميع يرحبون بها وعلى الأخص « عمر » الصغير
لما تفيضه على مجلسها من بهجة وحبور ، ولما تدخله على
قلوبهم من سرور بهداياها الفخمة المتنوعة وسخائها البالغ طوال
فترة زيارتها .

أما الشيخ « عبدالله » فكان يزم شفثيه في حزم ، ويدلف
إلى حجرته يغلقها عليه حين تطرق أذنيه الجلابة التي تصحب
وصولها عادة من صياح ولده وتصفيقه ابتهاجا ، إلى عبارات
المديح والترحيب التي تسكيلها زوجته لها كيلا : إلى هرولة أبيه
يفسح لها طريقا ويفرش لها الحصير في الشرفة ذات المشربية ،
فلم يغب عن الشيخ « عبدالله » ميلها نحوه وتعلقها به منذ أول
مقابلة لهما . فضحتنا نظراتها الجوعى وحركاتها الداعية ونبرات
صوتها تهتج وهي تحادثه أو تتحدث عنه إلى أحد أفراد أسرته .
فذهل بادئ ذي بدء ، وهاله الأمر ، فكذب نفسه ، وتجاهل
استعطاف عينيها المبهلتين ، وظمأ شفثيها المنفرجتين تلهفا كشرة

تين شققها الضج . وأصمّ وعيه عن نداء كيائها الصارخ في جموحه .
فلم يفلح . لم ترتدع « ديانا » . زادها التجاهل هياما ، والفتور
اشتعالا . صد عنها قتها الكت عليه . زجرها قترامت تحت قدميه .
جافاها فطاش صوابها وجن جنونها .

فلاذ بربه مستنجدا يسأله العصمة من الغواية . هجر البيت
وأصبح لا يلجئه إلا لما في غيابة الليل بعد أن يجمع الجميع
في مضاجعهم . أما النهار فيمضي جله في الأزهر الشريف مستزيذا
من تعاليمه منقبا بين أسفاره ينهل ولا يرتوى . فإذا ما عاد يعم وجهه
شطر المسجد « الحسيني » فيصلى العصر . ويتخذ له مجاسا في ركن
قصي ويسترسل في التسبيح والتمجيد . فتزحف الأفكار إليه
منلصقة تسعى باحثه عن ثغرة في روحه تنفذ منها ، وتتجمع حوله
كالغيوم في تكاثف محوّة تتربص به الفرص لتنفض عليه متضاربة
تجاذبه يمنة ويسرة . ويقبل عليه « إيليس » وقبيله يوسوسون
في صدره يسكبون في أذنه معسول الكلام والوعد . فيرزح عقله
البشري تحت وطأة الهجوم ، ويكاد يتخاذل لولا بقية من عزيمة
يخلّوهم بها عنه بعيدا ، وينفض كالملسوع مستعيذا بالله
من الوسواس الخناس ، وينطلق يحار بترتيل القرآن في صوت
شجيّ يجلجل في أرجاء المسجد فيحمله النسيم على أكفه الرقاق

عبر النوافذ والحوائط إلى المازة في الشوارع ، فيقفون حيث هم متلهتين حولهم . كعبير المسك يفوح فيتأسم ريحه العبد . حتى إذا تبينوا مصدر الصوت الرخيم نظر بعضهم إلى بعض يتشاورون في صمت ما يابثون بعده أن يتركوا ما هم فيه ، ويدخلوا المسجد يحيطون بالشيخ « عبد الله » يستمعون إليه ويقاطعون مرّدين :

« الله يفتح عليك يا شيخ ! زدنا زادك الله من بركاته ! » .
لم يقل هذا من عزم « ديانا » . كانت ترسل أباه وراءه يستدعيه ، يالح عليه وما يزال به حتى يرجع معه . فيلبي طلبها مرة ويخذلها مرات . يخلق الأعذار للتخلف وتختلق الأسباب لحضوره . ظالا هكذا مدة ليست بالقصيرة بين دة وجزر ، حتى ضاق بها ذرعا وعيل صبرها عنه . فألقيا دعا بالآقعة التي التزمها يقا تلان خلفها ، وواجه أحدهما الآخر سافرين .

كانت ليلة عرفت « ديانا » خلاها أن الحاج « سليمان » وأسرة ينوون عصر الغد عيادة مريض يمت لهم بصلة النسب يقيم في حي « باب الخاق » . وكانوا وقتئذ يجلسون إلى العشاء مفترشين الحشايا حول الصينية الواسعة المستديرة . فشعرت « ديانا » بقاها يغوص في جوفها وبرغبة قوية في البكاء . فتحيرت قطعة الكباب المغمورة

بالطحينة بين فمها ويدها التي ارتعشت مرفوعة في الهواء وتوقفت .
ثم تنهت لها «ديانا» فرجعتها إلى الصحيفة في سكون وهي تنص
بريقها وتغتصب ابتسامة أبت الخضوع فتملصت وشحبت قبل
أن ترسم على شفيتها . وغاض الدم في وجهها وتركه ممتعاً ،
ثم اندفع إليه ثانية بقوة يلهبه بلونه القاني ، وتمتمت هي بوضع
كلمات تعلمهم باشتغالها أيضاً في اليوم عينه ، وبانتواؤها التخلف تبعاً
لذلك عن زيارتهم .

فتلوى قلبها الكلامها بين ضلوعها يتخبط صارخاً محتجاً ويركل
بأكياء كطفل عنيد يأبى الإذعان . فضغطت «ديانا» يدها عليه
تهديء من ثورته . فسألها الحاج «سايهان» وهو يلاحظها بعينه
الراقصين ويدض قطعة فطير :
«أتشعرين بتعب يا بنتي ؟» .

فزحزحت يدها بسرعة إلى معدتها وأجابته بمرح مفتعل :
«كلا يا أبت اكل ما في الأمر أتى امتلأت بطعامك الدسم ا . .
فضحك الباقون ، وناولتها بدرية ، برتقالة وهي تحضها على
أكلاها بنظرة من عينيها المعبرتين وهمهمة من فمها المملوء بالطعام .
فأخذتها منه «ديانا» واتكأت على الحائط بظهرها ، وراحت
تقشرها ببطء وتفكير .

أما الحاج . سليمان ، وقد سره جوابها فقد مده يده وتناول
شريحة أخرى من الفطير الساخن اللذيذ الذى ينضح عسلا وسمنا ،
لعقها ومسح شفثيه بلسانه على قطارة تكون عالقة بهما ثم أعمال
أسنانه فى جانب الفطيرة ، يقضم القضة ويلوكها فى فمه بترقٍ
متلذذا ، ويتأمل الفجوة التى أحدثتها أنيابه بإعجاب ، ويقلب
الفطيرة فى يده ذات اليمين وذات الشمال يمتع ناظره بجميع
وجوهها ، حتى إذا فرغ فمه ملأه مرة ثانية وعاد يتأمل الفجوة
الجديدة ، وهلم جرا .

أما «ديانا» فاشتدت المطاوعة بين عقلها الهزيل وقابها العانى
الذى تعود الارتواء أينما اختار وكيفما شاء . يخوض المغامرة
واثقا من النصر الساحق ، ثم يدوس بقسوة خارجا منها فوق مهاد
من القلوب المكرومة سايما معافى لم تمسه شرارة مما يسمونه
الحب . أما أن يستهان به ويصطدم بقاب يصمد أمامه ويستعصى
عليه بل يهزمه ويسحقه بدوره ويصبح هو الفارس المغوار فى كل
جولة وصوله ؛ يرفج وجدا ويطير فرحا ويغيضهما ويتلظى
هياما ، فشىء جديد ...

لم تهم «ديانا» ليأتها تلك . ظلت تتقلب على فراش من جمر
الهوى وتتلذع بنيران فؤادها المستعرة ، حتى طلع الصبح وهى

فى حالة عصبية لم تمكنها من مغادرة فراشها . و مرّ النهار فلم تشترك
« ديانا » مع أفراد فرقتها فى أكل ولا هو ، تطفئ لفافة لتلقف
غيرها ، وتعب الخمر عبثا من زجاجة أمرت الخادم بإحضارها .
ثم أغاقت الحجرة خلفه على نفسها وأفكارها . تستلقى برهة على
ظهرها فوق أريكة ويمينا لفافة تحترق ببطء مثلها ، وبشماتها
كأس مترعة . ثم تنتفض واقفة وتقذف بهما جانبا وتروح وتجىء
فى أرجاء الحجرة فى ثورة عاصفة تضرب رأسها بقبضتها وتلكم
كفا أو فخذا . تتأمل وجهها وقوامها فى المراة وتخطر أمامها باسمه
مرة ثم ترمى على الأرض ضارعة بأ كف مضمومة مرة أخرى
تتاجى خيال حبيبها وتسأله مئة ورحمة .

فلما كان الغروب دلف إلى حجرتها زميلها « مورييس »
السمين ، ووقف يتأملها مدة طويلة . ثم دنا منها يحيط
كفها بذراعه :

« أى « ديانا » يا صغيرتى ! حب جديد ، أليس كذلك ؟ » ...
فلما لم تجب أردف : « لا بأس . ولكن لماذا تفسدين حياتك
من أجله ؟ سيمرّ كما مرّ سابقوه ولا تبقى إلا الذكرى ، ما تلبث
هى الأخرى أن تشحب وتبعد حتى تزول ، فتورى أنت إذا
ذكرك أحدا به ! » .

فرفعت إليه نظرها مستنكرة . فأسرع يقول :
« لا تخافى . إني أعرف كل شيء . لم أفه بحرف لأحد .
ولكن أترينه يستحق كل هذا منك ؟ أتحببته إلى هذا الحد ؟ »
فبرقت عيناها بالهب عات غاشم . وهمست بصوت مكلوم
كفحيح أفعى متوشمة :

« أحبه ؟ بل أهواه - أعبد - أرغب فيه بكل ما فى بدنى
من قوة وعنف ! » .

فهز « موريس » رأسه ، ثم ألقى بقنبالته . سألها :
« وهو ؟ أييادك هوى بهوى ووجدًا بوجد ؟ » .
فصرخت فيه واختر تفوح من فيها :
« أتسخر منى ؟ » .

فربت شعرها معندرا يهدئ من روعها وقد فهم الموقف .
وأردفت هى وبصرها عبر النافذة يتطلع إلى أفق بعيد :
« سيحببني حتما . سأجعله يهوانى . يجب أن يهوانى . كلهم فعل
وهو لا بد فاعل . هو صغير - صغير جدا - طفل لا يفقه
عن الحب إلا الزواج ! » .

فقال لها « موريس » فى لهجة من يحتال لطفه :
« نعم ، نعم سيهوانك بلا شك يوما . أما الآن فهيا بنا إلى العمل

الذى نأكل منه عيشا ، فإن الرئيس غاضب قد ضاق بتغيبك المتكرر وتخلفك دون إبداء أسباب . واقد هدد أمس بفصلك إن انقطعت بعد ذلك .

فصرخت تدق الأرض بقدمها :

« أبا العزل هددنى ؟ وافرحته ! أو جرؤ ؟ إذن قل له إنى مستقلة . أريد أن أكون حرة أحياء حياتى على هواى بلا قيد ، ولا أخضع لإنسان أئتمر بأوامره . قل له إنى لا أريد أن أرى وجهه الأغبر بعد اليوم ! أسمع أنت ؟ » .

فصاح « مورييس » :

« أى « ديانا » ، « ديانا » ! أرجوك أن تتروى ! أتستقلين ؟ من أين إذن تأكلين ؟ وكيف تعيشين ؟ أتلقين بنفسك إلى هاوية الانحدار السحيقة راغبة ؟ « ديانا » ، أرجوك يا فتاتى ! » .

فخرجت عن طورها وصاحت به تدفعه نحو الباب :

« أنا فى تمام عقلى ومنتهى رزاتى . وسأفعل ما قلت . أما أنت فإذا كنت بحق صديق فأحضر لى معك باقى مرتبى واضرب صفحا عن شئونى الخاصة . لا تزج بأنفك فيها فيخرج داميا ملكوما ! والآن مع السلامة ! » .

وصفقت الباب وراءه ، ورجعت إلى فراشها تترنح من ثقل

الخمر ! فألقت بنفسها عليه ، وما كادت تفعل حتى راحت في سبات عميق ، استيقظت منه لتجد الحجرة تسبح في ظلام دامس . فنهضت لتحس طريقها إلى النافذة وفتحتها على مصراعها ، وأخرجت رأسها منها على النسيم الرطب يخفف من حدة الألم الذى ينبض فيه .

كان الليل قد أرخى سدوله - وللليل همساته ولمزاته - وأضفى على الكون شاعرية وخيالا يلهيان الأحاسيس ويوحيان بأرق المشاعر . وأطل القمر بحياء من وراء غمامة يرسل شعاعا ناعما مثيراً أشد حرارة من الشمس وأبعد أثرا . فرفعت « ديانا » وجهها إليه متبلة كأنما هي كاهنة وثنية ، وأغمضت عينيها نشوى في حين تدفق الدم حارا طاغيا في عروقها ، واهتزت بجأوة له في انفعال . هبت واقفة تفرك يديها في عصبية وحيرة : « كيف أمضى ليلة كتلك وحيدة بين جدران أربعة - ليلة لم تخلق إلا للحب . أين حبيب الروح منى الساعة ؟ أو اه يا قلبي ! أو اه يا جسدي ! تعبدانه وتشتهيهانه وهو أصم أعمى عنكما ! تكتويان بفتوره وتلتهبان ببروده ! تعيشان به وهو عنكما لاه ! أو اه يا ربى ! »

كانت قد تعودت زيارتهم حتى أدمنت صحبتهم وصار لا يطيب لها مقام إلا بينهم . وعلى أمل رؤية الشيخ « عبد الله » أو الجلوس

إليه دقائق قد تمضى اليوم بطوله معهم متنقلة قلقلة بين الأريكة والنافذة . ولكنه كان أملا على كل حال . أما أنها لا تذهب قطعاً يوماً . . دهرها بطوله . فشىء محال - محال فوق الاحتمال ! ولكن . ماذا يمنعها ؟ اعتدلت « ديانا » فى جلستها وقلبها يخفق للسؤال الطارئ . نعم والله ماذا يمنعها من الذهاب ؟ ولو لتتسهم ريحه وتستنشق الهواء الذى مر على جبهته وتمتع ناظرها بيئته وإن غاب عنه ، وتشترى علبه من لقائفه المفضلة . وتحادث عم « متولى » البائع عنه . ماذا يمنعها أو يضيرها ؟ بالعكس . ستهداً أعصابها وتطيب نفسها . ويبرد غليلها شيئاً . فأسرعت ترتدى ملابسها متأنقة فى اختيارها متزينة أبدع زينة . وتحلت بجواهرها وتعطرت وتنمقت وسمحت لخصلة نافرة من شعرها الحريرى أن تنفلت من عصابة رأسها المزركشة ، وتنزلق مترجحة فوق حاجبها الأيسر فى إغراء ودلال .

ثم تسلت كعادتها من الفندق ، ووجهتها حتى « الحسين » . لم يشرب الحاج « سليمان » قهوة العصر ذلك اليوم . فقد خرج بعد أن تناولوا غداءهم على الفور مصطحباً « بدرية » وابنها . أما الشيخ « عبد الله » فتخلف إذ كان قد زار قريبهم المريض هذا عدة مرات على حدة . ولكنه خرج معهم وأوصلهم إلى « الترام »

حتى إذا سار بهم قفل قاصدا إلى المسجد حيث اتخذ مجلسا وسط زمرة من صحابه . وما زالوا يتذاكرون في تفسير آية كريمة . ويتناقشون في تأويل أحد الأحاديث الشريفة حتى أذن المؤذن لصلاة المغرب . فصلوها جماعة يؤمهم الشيخ « عبد الله » ولما فرغوا أقرأهم السلام ويم وجهه شطر البيت تداعبه فكرة خلوة وسكونه . طالما تمناهما من زمن ! السكون والوحدة ! لاحت في مخيلته أمسية هادئة يمضيها وحيدا بعد أن يفتح نوافذ المئبرية كلها ويوقد السراج . ثم يتربع فوق الحشية الناعمة يقرأ أو يكتب وبجانبه صحفة من الترمس اللذيذ يؤانسه ويذهب وحشته . فإذا ثقلت جفونه وتسلى النعاس إليهما تمطى في بحبوحة واستسلم له مرحبا سعيدا .

اشترت « ديانا » علبة من لفائف التبغ ، وتحدثت إلى العم « متولى » بعض الساعة وردت التحية ذاهلة على امرأة أو اثنتين من الجيرة ، ثم سارت متقلبة بين الأزقة والحارات تطوف بالبيوت تلس جدرانها هامسة مسألة تكاد تنطق بقول المجنون : وما حب الديار شغفن قلبي ولاكن حب من سكن الديارا تنهد عن فؤاد منقطر يعتصر اعتصارا وتنزع الزفرات حارة من أعماقها تمزقها وتزلزل كيائها . تلسع دموع الوله عيونها

المحدقة ، وتخنق عبرات الجوى حلقها وصوتها . حالها كحال
الشاعر حين قال :

أنا والله هالك آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى قد أقامت قيامتى

ثم حملتها قدماها إلى بيت الحاج «سايمان» . فتوقفت أمامه
مشدوهة تكذب بصرها وضربات قلبها تدوى كقعر الطبول
فى آذانها . أحق ما ترى ؟ أم خيَّله عقلها المتعب وروحها العطشى ؟
أنور هذا الذى يتلألأ فى المشربية الحبيبة ؟

طرقت الباب بيد ترتعش ، ففتحت لها امرأة من الساكنات
تعرفها ، ضحكت فى وجهها مرحبة ، وفسحت لها الطريق وهى
تشير إلى الطبقة العليا :

« الشيخ «عبد الله» موجود فوق وحده ! تفضلى . تفضلى .
لن يمرّ كثير حتى يرجع الحاج «سايمان» و «بدرية» ! » .
فاستندت «ديانا» إلى درابزين السلم الخشبي ، حتى ملكت
شئنا نفسها . ثم صعدت إليه بخطى مثدة وأوصال مرتجفة .
وحيدا . أى فرصة ! أى هبة إلهية ! طالما انتظرتها ! طالما
ابتهلت من أجلها ! وحيدا ! حبيبي ! منى الروح وحب الفؤاد !
وحيدا ! وحيدا ! وحيدا !

طوت «ديانا» الدرجات على وقع ترديد قلبها ، حتى وصلت
لاهئة تنصبب عرقا . فدفعت الباب ودلفت بتلصص من حجرة
إلى حجرة ، حتى بلغت المشربية حيث توقفت على عتبة خاشعة
كأنها في حرم قدسى .

كان الشيخ «عبد الله» يختم يومه ، يتمم ببعض الآيات
القرآنية التي تعود تلاوتها قبل النوم :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنثتم حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .
« صدق الله العظيم » .

ومسح على رأسه ووجهه . فوقع بصره فجأة على «ديانا»
تتأللاً كنجم هبط من السماء في أجمل حلة وأبدع زينة ، وتنفجر
أنوثة وزروعة كأنها جذية انشقت عنها الأرض ، يطل قلبها من
عينها ضارعا . ويختلج كل عضو في جسدها رغبة وهياما .
فتسمرت حدقتاه بها كأنما هي شبح صوره خياله المرهق
وجسمته عواطفه المكبوتة . فظل محذقا في صمت يتأملها بعينه
العميقتين الأمينتين على سرهما ...

ورأت «ديانا» في وجهه الشاحب المرفوع إليها بهاء وسناء

يجذبانها ويقيدانها كفراشة تحوم باحثه عن نور ، فتجده يشع
وسط ظلام داهس ، لا شيء عداه هناك يوانسها ، ولا شيء سواد
هناك لروحها شفاء .

فانحت بحرارة كهفي ، وأخذت وجهه الوسيم الغض بين
كفيها ، وهوت بشفتيها المحمومتين تضغط على شفثيه . ثم ألقت
بنفسها بين أحضانه تمرغ رأسها في صدره وتضربه بقبضتيها
ضربات خفافا كأنما تهيب بمشاعره أن تستيقظ وبجواسه أن
تجاوبها ، وهمست بصوت يتحشرج انفعالا :
« هيت لك ! » .

فانتفض الشيخ « عبد الله » في دعر كأنما سقطت في أحضانه
رقطاء تتلوى ، وطوح بها جانبا ، وهبّ واقفا وهو يصيح :
« وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو
السميع العليم » .

فتشبثت « ديانا » بذيل قفطانه ودموعها تسيل وجدا وكدا .
فاستدار نحوها وبصره عالق بالسما ، وهمس في صوت مضطرب :
« سيدتي ، أعرضي عن هذا واستغفري لربك . إن الله
واسع المغفرة ! » .

فتلوت على الأرض تزحف نحو ، وأحاطت قدميه بذراعيها :



فلقشبانت «ديانا» بذيل قفطانہ ودموعها آسيل وجدا وكمدا ...

أستغفره ؟ لماذا ؟ بل قل أحده ! لقد وضعك في طريق .
هداني إليك . أحبك وأهواك . وأجد فيك سكن قلبي بعد طول
بحث وتقلب . أواد يا حبيبي ! .

فأنحني يخلص قدميه من قبضتها . فتخلت عنهما بغته ، وأطبقت
في لمح البصر على عنقه تجذبه إليها . فاختلف توازنه وهوى أرضا
إلى جانبها .

وهبت نسمة معربة صفعت السراج فانطفأ . . .

وهلل « إبليس » ورقص وقيله طربا . ثم تكاثروا على الشيخ
يلجمونه ويكبلونه . يخزونه بسنان حراهم النارية ، ويلهبون
جسده بفحيح أنفاسهم الجهنمية . فشعر بالدم يتبلور في عروقه
كفتات الزجاج ، وأحس بدبيب نمل يسعى في لحمه . ودار رأسه
وساخت الأرض تحته . ودوى في أذنيه طنين مصمم لأصوات
منكرة تدعوه إلى الوليمة ، تحضه عليها تارة ، وتسخر من تهيبه
مقهمة تارة أخرى . تصور له الخطيئة فردوس لذات ، فيه من
البهجة والأنس مسرات . تمسخ طهارته ضعفا ، وتنعت تمسكه
بالفضيلة بالها ، وترمى قلبه الأمين بالبلادة ، فتحاملت روحه مستميتة
وأطلت زائغة العين من وسط الدوامة الجارفة تجأر مستغيثة ،
كغريق يقاتل تيارا عاتيا يستقوى تباعا على حين تنضاءل مقاومته

وتضعف . ورفع الشيخ بصره مرة أخيرة نحو السماء تنجاوب
بين أضلعه ضراعة « يوسف » :

« وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من
الجاهلين » .

فاستجاب له ربه ، وعصمه في اللحظة الحاسمة ، وأنزل الخشية
منه على قلبه بردا وسلاما بعد أن همت به وهم بها . فدفعها عنه
بعنف وتقرز ، ودموع الفرح تطفر من عينيه مدرارا ، وجسم
وهر يشفق ويشرق بالحبيب :

« الحمد لله الذي يظهرنا ويذكينا ويمنع عنا الرجس ! » .

وهب واقفا يشد الباب يبغي فرارا . جئن جنون « ديانا »
وقد أفلت الطائر وكان من نخها قاب قوسين أو أدنى . فصرخت
صرخة نكراء ، وألقت بنفسها عليه ثانية تتعلق بقفطانها في استماتة ،
جذب نفسه بعيدا بحزم ، فانشق الثوب نصفين . فأخرج ذراعيه
من أكمامه بسرعة ، وترك قفطانه يسقط فوق وجهها . وولى هو
هاربا من حجرة الفتنة يستعيز بالله من شياطين الإنس قبل الجن .
وجلجل أذان العشاء يشق دياجير الظلام كسيوف البرق .
فهزول الشيخ « عبد الله » لاثدا بالمسجد منفوش الشعر مشعث
الملابس . وطال سجوده ، وامتد سهاده إلى الفجر قائما يصلي

« مستغفرا مسترحما .

وأمر أهل بيته منذ ذلك اليوم بالإقلال من ترحيهم « بديانا » فوجموا . سألوه إيضا . فصمت . كرروا السؤال ، فتنصل . فلما ألحوا لمعرفة السبب الذى يحدوه على إغلاق الباب فى وجه من أغرقهم بفيض كرمها ثار على غير عادته ، وأصر صاخبا على تنفيذ رأيه دون إبداء أسباب .

وجاءت « ديانا » لزيارتهم فى الغداة . فقابلتها « بدرية » على رأس الحارة حيث وقفت تنتظرها ، وقادتها من يدها وهى تبسم لها مرحبة إلى منزل جارتهم « أم فلفل » ، فسارت « ديانا » معها فى استسلام تسألها بين الفينة والفينة باسمه :
إلى أين تأخذينى يا « بدرية » ؟ .

فلا تفهم « بدرية » بل تتسع ابتسامتها وتربت كتفها تطمئنها . وفى منزل « أم فلفل » لحق بهما الحاج « سليمان » . فتعلقت عينا « ديانا » به مسائلة :

« ما الخبر ؟ أجد شئ ؟ » .

وتضرج وجهها ، وحبست أنفاسها ، وأذانها مرهفة .

فهز الحاج « سليمان » رأسه بأسف وتمتم :

« أنا يا بنتى والله لا أعرف كيف أبدأ كلامى . أرجو أن

تَعَذِّرُنِي فَلَيْسَ بِيَدِي حِيلَةٌ . يَبْدُو أَنَّ ابْنِي جَنَّ أَوْ مَسَّهُ طَائِفٌ
إِذَا أَصْبَحَ وَهُوَ يَصْرُ عَلَى مَنَعِ النَّاسِ مِنْ زِيَارَتِنَا . وَلَسْتُ وَاللَّهِ
أَدْرِي لِهَذَا سَبِيلاً .

وَهَمَسَتْ « بَدْرِيَّةٌ » لِحَمِيهَا :

« أَعْتَقِدُ يَا عَمِّي أَنَّ الشَّيْخَ « عَبْدَ اللَّهِ » لَيْسَ رَاضِيًا عَنْ مِهْنَةِ
الرَّقْصِ وَالْغَنَاءِ الَّتِي تَحْتَرِفُهَا السَّيِّدَةُ « دِيَانَا » . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بِالْأَمْسِ
يَقْذِفُ مِنَ النَّافِذَةِ بِقِرَاطَيْسِ الْحُلُوى وَالْفَاكِهَةِ الَّتِي جَلِبَتْهَا لِابْنِي
عَمْرٍ « وَهُوَ يَهْدُرُ : « تَاللَّهِ إِنَّ قَرَشَهَا لَمُدْنَسٌ ! » .

وَكَانَتْ « دِيَانَا » تَتَّبِعُ حَدِيثَهُمْ . فَصَاحَتْ بِالْحَاجِّ « سَالِمَانَ » وَقَدْ
شَحِبَ وَجْهُهَا وَجَفَّ رَيْقُهَا :

« مَاذَا تَقُولُ « بَدْرِيَّةٌ » غَنَى وَعَنِ الشَّيْخِ « عَبْدَ اللَّهِ » ؟ تَرْجِمُهُ لِي
- تَرْجِمْ لِي قَوْلَهَا - أَرْجُوكَ ! » .

فَإِذَا الْهَاجُ أَنْ يَرَاوِغَهَا وَيَتَخَلَّصَ مِنْ إِجَابَتِهَا ، وَلَكِنَّهَا
أَلْحَقَتْ تَسْتَحْلِفُهُ بِكُلِّ غَالٍ حَتَّى أَذْعَنَ .

فَمَا سَمِعَتْ قَوْلَهُ حَتَّى تَنْفَسَتْ الصَّعْدَاءُ ، وَتَرَاحَتْ قَوَاهَا بَعْدَ
تَوْتَرٍ . ثُمَّ قَالَتْ :

« لَقَدْ ظَنَنْتُ مَا هُوَ أَبْعَدُ . أَمَّا هَذَا فَشَيْءٌ هَيِّنٌ . فَإِنِّي أَنَا أَيْضًا
لَسْتُ رَاضِيَةً عَنْ حَالِي وَعَمَلِي . وَلَقَدْ اسْتَقَلْتُ مِنْهُ بِالْأَمْسِ

وَأَتَوَى كَسْبَ عَيْشِي عَنْ طَرِيقِ شَرِيفٍ لِيَرْضَى عَنِ الشَّيْخِ
«عَبْدَ اللَّهِ !» . ثُمَّ أَرْدَفَتْ زَافِرَةً : «وَسِيرْ ضَى !» هَمْسَتْهَا لِنَفْسِهَا
وَعَيْنَاهَا تَسْبِحَانِ فِي حِلْمٍ جَمِيلٍ .

فَصَاحَ الْحَاجُّ «سَالِمَانُ» :

«اسْتَقَلْتُ ؟ أَحَقًّا تَقُولِينَ ؟ أَوْ مِنْ أَجْلَانَا ؟» .

وَاتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ غُرُورًا . فَأَجَابَتْ «دِيَانَا» بِهَدْوٍ :

«لَقَدْ اشْتَرَيْتُكُمْ بِدُنْيَايَ . وَفَضَلْتُكُمْ عَلَى رَفَقَائِي . وَرَجَحْتُ
كَفْتَكُمْ أَمَامَ قَلْبِي عَلَى عَشِيرَتِي !» .

وَلَمْ تَعُدْ «دِيَانَا» إِلَى الْفَنْدُقِ إِلَّا وَقَدْ اسْتَأْجَرَتْ حَجْرَةً
فِي مَنْزِلِ «أُمِّ فَلْقُلٍ» ، رَحِيبةً شَاهِقَةً ذَاتَ نَافِذَتَيْنِ تَطُلُ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْفَنَاءِ وَالْآخَرَى عَلَى الشَّارِعِ . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ جَاءَتْ بِحَوَائِجِهَا
وَحَقَائِقِهَا ، وَاشْتَرَتْ حَصِيرَةً مَزْرُكَةً الْوَسْطِ بِرُسُومِ خَضَرٍ
وَسُرِيرَ ذِي أَرْبَعَةِ أَعْمَدَةٍ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنْ فَرَّاشٍ . ثُمَّ نَظَّمَتْ مَسْكَنَهَا
الْجَدِيدَ تَعَاوُنَهَا «بَدْرِيَّةً» وَ«أُمِّ فَلْقُلٍ» وَأَضْفَتْ عَلَيْهِ مِنْ رُوحِهَا
وَفَرْنَسِيَّتِهَا مَا أَحَالَهُ إِلَى عَشِّ فَنَانٍ لَا يَنْقُصُهُ الْجَمَالُ وَلَا الشَّدْوُذُ .
فَبَيْنَمَا تَشْمَخُ فِي رُكْنٍ زَهْرِيَّةٍ يَابَانِيَّةٍ دَقِيقَةِ النُّقُوشِ ذَاتِ عُنُقٍ طَوِيلٍ
أَهْيَفٍ كَعُنُقِ الْغَزَالِ ، إِذْ يُوَاجِهُهَا فِي الرُّكْنِ الْمَقَابِلِ صَحْنٌ نَحَاسِي
تَقْبَعُ فَوْقَهُ قَلَّةٌ نَخَّارِيَّةٌ مَبْخَرَةٌ تَتَرَعُّ بِمَاءِ النَّيْلِ . وَبَيْنَمَا تَكْمُنُ

إلى جانب أريكة بلدية غطاؤها مزركش بورود فاقعة اللون ،
تدلى من فوقها لوحة فنية رائعة تمثل نفرا من الخيالة في عهد
نابليون يتحادثون في غابة . منهم راجل ومنهم على صهوة الجياد .
واشترت يباقي مرتبها « آلة خياطة » وأعلنت في الحى عن
استعدادها لحياكة الملابس . فانهالت عليها العروض والطلبات من
النساء ، كل تريد أن تلبس ثوبا من صنع « الإفرنجية » كما أطلقوا عليها .
فبسط عيشها ، وطاب مقامها . ولكن غرامها كان يستقوى عليها
يلبل أفكارها ويضيق خالقها ويأهب حواسها ، فتعجز حجرتها
وتترك الأثواب على الأرض كما هى ، وتمضى النهار هائمة على
وجهها تنفرس في الوجوه محومة حول بيت حبيبها .

واستمع الشيخ « عبد الله » مطأطئ الرأس غارقا في الفكر إلى
زوجه تروى أنباء « ديانا » بحماس ، وسبحته التى لا تفارقه بين
أيامه تحصى عليه ترديداته وتسبيحاته . وكان لا يعلق بشئ على
ما يسمع . فإذا سأله « بدرية » عن رأيه فى الخطوة الحاسمة التى
اتخذتها صديقتها ، والنضحية التى تحملتها من أجالهم ، تتم وهو يشيع
بوجهه :

مالنا ولها ! هداها الله . الله يتولى عباده ! .

ولكنه تجنب فى دخوله وخروجه من الحى المرور أمام

منزل « أم فلفل » . إذ كانت غرفة « ديانا » فى الطبقة الأرضية .
وقد زودت قاعدة النافذة العريضة المطة على الشارع بحشية
واتخذتها مجلسا مختارا تلاحظ منه الغادين والرائحين ، ولا تفوتها
فائتة مما يجرى فى الحارة والجيرة بأكملها . إلى أن كان يوم زار فيه
الشيخ « عبد الله » نفر من العلماء وأساتذته فى الأزهر الشريف .
دعاهم ليتناولوا العشاء عنده ، ويتناقشوا فى بعض الأمور المتعلقة
برواقهم . فلما هموا بالانصراف صحبهم إلى الشارع وسار معهم
يحمل مصباحا ينير لهم به طرقات الحى المتعرجة . وقد أراد فى
سيره أن يتحاشى الحارة التى تقيم بها « ديانا » ولكن كبيرهم اندفع
يدخلها قائلا :

« من هنا أقصر طريق يا شيخ « عبد الله » ! لا تنس أنى
ولدت ونشأت فى حى « الحسين » رضى الله عنه ! » .

فصمت على مضض ، وتبعهم فى استسلام . حتى إذا كانوا
أمام دار « أم فلفل » وكانت ليلة حارة ثقل فيها الهواء وتكاثفت
رطوبته ، رأوا « ديانا » تقف على عتبة الباب تلاحظ ضاحكة جمعا
من الأطفال يلهون ، وقد ارتدت ثوبا فاضحا هفهافا متقلص
الأكام لا يكاد يصل إلى ركبتيها ، وتستدير فتحة عنقه وتتسع
حتى يظهر أعلى نهديها النافرين . وعقصت شعرها الحالك إلى أعلى

بشريط أحمر فاقع ، وانتعلت حذاء صيفيا ذا شرائط رفيعة حمراء -
صورة رائعة أخاذة للجهال الفاجر .

فوجم العلماء وتوقفوا لحظة ينظرون إليها شذرا ، ثم التفتوا
إلى الشيخ « عبد الله » مسائلين :
« من هذه الفاجرة ؟ » .

فعبس وقطب جبينه وهو يحيب :
« دخيلة أجنبية يدعوها فنانة » .

وأنزل يده بالمصباح ليدراً عن وجهه النور . ولكن سبق
السيف العذل . فقد لمحته « ديانا » فهتفت من أعماقها باسمه
كما يهتف المرء منادياً ربه بعد طول نأى . وركضت إليه في لهفة
وشفتها منفرجتان تتحرقان شوقاً ، وعيناها والهتان تفيضان
هوى . وألقت بنفسها تحتضن ذراعه ضاغطة بيده على قلبها .

وذهل الجمع . وشحب وجه الشيخ « عبد الله » وجن جنونه .
فدفعها عنه بوحشية ، كأنما هي برصاء يرهب عدواها ، فارتطمت
بالجدار المقابل وسقطت على الأرض .

وتابع سيره مع ضيوفه ، وهو يتمتم :

« قطط مسعورة ! أعاذنا الله ولطف بنا ! » .

وأوصلهم إلى « الترام » ومراجل غضبه تغلى ، وعاد

من الطريق عينه وفي نفسه أشياء . فوجد حفنة من النساء ملتفات حول «ديانا» تنضح إحداهن وجهها بالماء ، وتلك أخرى قدميها . وثالثة كفيها ، فاقترب حتى حاذاهن : فتطوّعت امرأة مسنة بالإيضاح :

« وجدت » الإفرنجية « مغشياً عليها جنب الحائط والأطفال حولها حيارى . فناديت « أم فلفل » و « أم شربات » لنسفعها . ثم تمصصت شفتيها وأردفت : « مسكينة والله هذه المرأة ! » . وفتحت «ديانا» عينيها ، وراحت تنظر إلى الشيخ « عبد الله » نظرات ذليلة خاضعة آناً ، متبلة آناً آخر . فضم عباة حوله بإحكام كأنما يخشى عليها التلوّث ، وقال لها بالفرنسية :

« ألا تقلعين عن غيبك ؟ لقد صبرت عليك ورضيت بحيرتك ، إذ ظننت أن الله قد منّ عليك بالهدى . ولكنك تماديت وأضلك الشيطان ، حتى لم يعد هناك بدٌّ من تدخلى . قسماً بالله إن لم تلزمى حدود التحشم والدين - إن كان لك دين - لأحاربنك حرباً شعواء ، حتى يرجمك الناس المغشوشون فيك بالحجارة والطين ! أتعين ما أقول ؟ » .

واستدار قافلاً . فرفعت نفسها على مرفقيها منادية تقبّل شفّتها الكلمات وهي خارجة من بينهما :

« عبد الله - حبيبي ! » .

فدار على عقبه ، وقد طاش صوابه ، وتطاير الشرر من
عينه ، وبصق بصفة تحقير تطاير رذاذها فأصاب ذراعيها
الممدودتين ونخذيها العاريتين . ومضى لا يلوى على شيء .

فقالت إحدى النساء تطيب خاطرها :

« ما عليك يا بنتي . فما له بالنساء شأن » .

فأجابتها « ديانا » بعريتها الركيكة التي بدأت تلتقطها على
الأيام ، ودموع الحنق تسيل على صدغها :

« هو يكرهني ! » .

فقالت المرأة باسمه :

« لا أظن . كل ما في الأمر أن طيورنا تجفل من الحسن
المكشوف . وعلى الأخص هو . فإنه رجل طاهر كله بركة
على الرغم من حداثة سنّه . ما عليك . خذي - خذي يا بنتي غطي
نفسك ! » وخلعت المرأة عن نفسها ملاءتها وألقها حول « ديانا » .
وعلقت « أم فلعل » على الحديث بلهجتها الزنجية :

« الجمال يا بنتي كالطعام ، إذا ترك في العراء وخامر الإنسان
شك في حوم الذباب حوله عافته نفسه . رأس مال المرأة منا هنا
عفتها . ويزنها رجالنا على هذا الأساس . وكلما بعدت على المال

ثقلت موازينها . الرجل يتمسك بامرأته المحتشمة ولو كان نصيبها من الجمال كنصيبى ! ، وأغرقت فى الضحك : « خذينى أنا مثلاً ! والنبي يعبدنى زوجى المعلم « حنفى » عبادة ! والظلام أبى . والليل أخى ! ، .

وعت «ديانا» الدرس : « طيورنا تجفل . على الأخص هو . الجمال . الزواج . . . فتبدل مظهرها . تمثلت بنساء الحى وحاكت لنفسها ثيابا كثيابهن القطنية ذات الأكمام الطويلة والصدر المستور ، وتعلمت أن ترتدى الملاءة السوداء وتلفها حولها بإحكام ، وتسدل على وجهها نقابا . وقللت من أصباغها وخروجها . أقنعها المنطق وإن حرق أحشاءها . فاستمسكت شيئاً ، وأغرقت قلبها فى عملها تبرده حار عواطفها . وقصرت زياراتها على جاراتها : تمرض العليل ، وتسعف الملهوف ، وتهدي الطفل العنيد ، تغسله وتطعمه وتساعد أمه فى عملها ، وتسرع إلى غرفتها لحظة ما يعود أبوه . صادقتها البنات ، فعلمتهن أشغال الإبرة والحياكة . أحبتهن النساء فأعطتهن جلّ وقتها .

وقرأت يوماً فى جريدة فرنسية عن مسابقة لقصة تطرق موضوعاً جديداً . فبعثت إليها بقصتها - مقتطفات من حياتها كراقصة تحط الرجال فى كل بلد فترة ، ومقتطفات من حياتها

الجديدة حيث حطت الراقصة الرجال آخر مرة ، واختارت
المقام بعد طول مطاف ، وماتت لتبعث من جديد . وأطلقت
على قصتها اسم « البعث » ، فنجحت نجاحا باهرا ، وفازت
بالجائزة الأولى ؛ لطرافة روايتها ، وصدقها ، ودقة تصويرها .
وأشادت بها الجريدة صاحبة المسابقة و صفقت . فشجعها ذلك على
طرق هذا الباب بين حين وحين كلما احتاجت لمزيد مال . فأخذت
ترسل إلى المجلات والصحف وصفا لمختلف النواحي الاجتماعية في
مستقرها الذي تبنيه . صورت بقلها الفنان حفلة سبوع وحفلة
زواج وغيرهما من تقاليد القوم وعاداتهم . وأحيت على الورق
شخصيات من الحيّ تستأهل التخليد كإمام المسجد ومنزلته في قومه .
وشيوخ الحارة ، والمأذون ، وبائع العرقسوس العتيق بثيابه التقليدية ،
و « أم بكير » ، بائعة المحشى وفتوة الحيّ في الوقت عينه ، و « أم
بخاطرها » ، الخاطبة التي فاقت الساسة في اللباقة وقوة الحجة
والتوفيق بين الناس .

فوجدت الصحف الأجنبية المحلية والخارجية في كتابات
« ديانا » لونا طريفا جذابا . فراجت سوقها ، ووجدت هي
لعواطفها منفثا . وأعانها كسبها من الكتابة والحياكة على العيش
في مجبوحة . ولكنها كانت كريمة ومبذرة . تغدق على جيرانها

ولا تمسك ، وتنفق في وجوه الخير كالمحمومة تكفيرا وتقربا إلى الله الذي يعبدده كل من حولها . يصلون له ويصومون شهرا طويلا مستعذبين الجوع والعطش ، ويفطرون على كسرة وعود فجّل ثم يقبلون أيديهم ظهرا وبطنا يثنون عليه ويحمدونه . ذكره على أطراف ألسنتهم يندمج في كلامهم سواء أكان عن المرض أم الصحة أم الأولاد أم العسر أم اليسر . يهابونه ويعملون ألف حساب ليوم حسابه . فينزل سكينة على قلوبهم ويجزيهم هدوء نفس وراحة بال وقناعة ، ويتكفل بهم دنيا وآخرة .

فتفتّح قلب « ديانا » القلق المتخبط للنور يشق طريقا داخله حينئذ ، كسكين يقطع في الأوهام المتكاثفة عليه كنبات اللبلاب ينمو في تكاثف متراما على الأسوار . فكانت تستمع للأذان يجلجل ، فتجاوب أصدائه داخلها يهزها هذا تكاد تنفطر به وقلها يرجف وروحها تهفو . وانقضت غيوم الشك والغموض الجاثمة على عقلها شيئا فشيئا وهي تلهم عن اليمين وعن الشمال تعاليم الدين الواسع السمع . تتأمل وجهها من الوجوه السمر المحيطة بها ، تبسم شفاهه الغليظة دائما ، صافية عيونه القانعة دائما ، فتشعر بنشوة وانسراح ، وقد وقفت على سر هنائه المنبثق من أعماقه الذي طالما حيّرها ، ووضعت قدمها على أولى درجات السلم

الثابت المرتكز على صخرة الإيمان الموصل إلى هدوء الروح واستقرارها . وتأثر حسها المرهف ببيئتها الجديدة الطاهرة المتساحة المسالمة فجارتها . واستراحت نفسها لتلك الفلاسفة الشعبية الواثقة في اطمئنان : « أعط والله يعطى » المتغلغلة في النفوس حولها ، فاعتنقتها وبرزت فيها الجميع . فلم يكفها مال ، ولم يدم في يديها إلا ريثما ينطلق منهما . فأخذت تعمل ليل نهار . تحوّل طوال اليوم وتسهر شطرا كبيرا من الليل تنمق مقالة أو تنفن في سرد وقائع قصة .

ولكنها وسط دوامة العمل التي جرفتها ترفقها مختارة لم تنس حبها لحظة ، وإن هدا من فورته شيئا اشتغالها بالدين . ككل جديد لديها يخفف من غلواء سابقه ولا ينتقصه . فأضحى غرامها بالشيخ « عبد الله » كنار الجذوة الهادئة في ثبات يستعر حطبها بعد أن خففت ألسنة لها . فلا يذكر اسمه أمامها أو يتحدث اثنان عن شأن من شؤونه حتى ترفع رأسها المكدود عن الطاحونة التي قيدت نفسها إليها تذيب قنات قواها وتنضب حيويتها الفائضة . فتأقط الكلمات بشوق تنقوت بها بقاب خافق وعيون حاملة .

ومرت الشهور . وبلغت أخبار تحشمها وأعمالها مسامع الشيخ

« عبد الله » . فhez رأسه رِضًا . وبلغها ذلك . فاستماتت في إرضائه . إلى أن قالوا له يوما إنها سقطت فريسة الحمى . وتردّدت بدرية ، على مسكنها تخدمها وتسهر عايتها أسبوعا أو اثنين . ثم اشتدت عليها العلة وزاد الخطر على حياتها . وأيسر الطيب الذي جاءوا به يعودها ، وقال للنساء حولها وهو يحك ذقنه في حيرة :

« إنها لا تقاوم البتة كأنما لا تريد أن تعيش . إن مرضها ليس بالخطير ولا يستعصى على دواء ، ولكنها هي - هي بذاتها - تقف حجر عثرة في طريق شفائها . كأنى بنفسيتها ساحة وغى يدور فيها القتال على أشده فيتداعى بدنها متهدما من قسوة الحرب القائمة داخله ، .

ورفع كتفيه وخفضهما ثانية في استسلام ، ثم أردف مسائلًا : « أهناك ما يهملها ويملاها كمدًا مستخفيا ينفث في أحشائها سمومه ؟ أتراها تخفى سرا يثقل عليها فينضب معين قوتها ويفل من مقاومتها ؟ » .

فغضت « بدرية » بصرها ، على حين تضرّج وجهها المتعب وهي تجيب :

« لست أدري يا سيدى . ولكنى أستحلفك أن تبذل أقصى

الجهد فى درء المرض عنها ، وأنا على أتم استعداد لخدمتها لأنتهاون
ولا أعصى لك أمرا ! ، .

وآستشّرت العلة ، وأشرفت « ديانا ، على الهلاك . تمضى
النهار فى غيبوبة ، حتى إذا أسبل الليل سدوله ارتفعت حرارتها
وثارت أعصابها فيكثر تقاها يئمة ويسرة وتهذى بكلمات مهمة
بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى . وأضحت « بدرية ، تلازمها
لا تفارقها إلا إذا تسلمت « أم فافل » مكانها . فكانتا تحاولان
جاهدتين تبين لفظ مما ينفلت من بين شفيتها القرمزيتين .

وفاجأت « أم فافل » « بدرية » ذات صباح بقولها :
« لقد سمعتها تنادى الشيخ « عبد الله » . ترى ماذا تريد منه ؟ » .
فتبسمت « بدرية » وأجابت وهى تحاول مراوغة نظرات
المرأة النافذة :

« إذن سأناديه حالا . فربما ماتت المرأة المسكينة قبل أن
توضح له بالغتها من أخبار أهلها شيئا . »

وانفلتت تركض من الحجرة .

والكن الشيخ « عبد الله » أبى الذهاب إلى « ديانا . وتردد
زمنًا وهو يجادل زوجه ، ثم لان أمام إلحافها وقام معها .
وجد « ديانا ، فى غيبوبة كعادتها يكاد يحزم الناظر

إليها بموتها . لولا رأسها تضرب به المخذة بغتة ثم تسكن
سكونا شاملا .

وقف الشيخ « عبد الله » يتأملها في صمت لا تختلج في وجهه
عضلة ولا تتم قسماته الرزينة الصافية عن شعور . وركعت
« بدرية » إلى جانب الفراش تهمس تكرارا في أذن « ديانا » :
« هاهو ذا الشيخ » عبد الله ، « هاهو ذا الشيخ » عبد الله ، !
الشيخ « عبد الله » ... « عبد الله » ... « عبد الله » !
فاختاج جفنا المريضة ثم سكنا . ولا شيء غير ذلك . فأعادت
« بدرية » المحاولة ، فزفرت « ديانا » بحرقة مجاورة وعيناها مغلقتان .
فتشجعت « بدرية » وكثرت ترديد الأسم تسكبه في أذنيها
هامسة بحنان :

« عبد الله ... عبد الله ... عبد الله ... » .

فتنهدت « ديانا » وسالت دموعها ساخنة من تحت جفنها
المطبقين . وتدفق سيلها . وكأنما أوجعت حرارته خديها
وألهبتهما إذ فتحت عينيها بعد لآي متأوهة تنظر حولها في ذهول
ساهرة . ثم تلونت نظراتها شيئا فشيئا بالانتباه واليقظة ، واتسعت
حدقتها وقد تشبثتا بوجه الشيخ « عبد الله » ، لا تحيدان عنه .
ورفعت يدها بجهد تلمس ثوبه كأنما ليتأكد عندها وجوده

وثباته وعدم تلاشيهِ كما يفعل في أحلامها ويتركها تتحرق بحمى الوجد .

فدفعت « بدرية » زوجها تقربه من فراش المريضة التي تلاحقت أنفاسها . وحاولت النهوض ، فانبثق العرق باردا يتصبب من جبهتها ، وارتمت على ظهرها ثانية وشفقتها تمنعان بأشياء كثيرة بكاء ، قد تكون ابتهاالا للحبيب الذي هو يته فجافاها ، أو دعاء للرب الذي عرفته فجافاها . وانهمرت دموعها وشرقت بها وهي تحاول الابتسام خلالها ، فدفت رأسها فى المخدة ، واختاج بدنها مهتزا بنحيب قاس مرير .

وتركوها تبكى حتى هدأت ، فسحب الشيخ « عبد الله » مقعدا جلس عليه ، وبصره إلى الأرض لم يرفعه . حتى عند ما همست بصوت مرتعش :

« عبد الله . . . عبد الله . . . »

فحنى رأسه ، وأسرعت حبات سبخته بعضها وراء بعض .

وتكرر نداؤها : « عبد الله . . . عبد الله . . . »

فقطب جبينه ، وعض على شفته السفلى فى إحراج وحيرة .

ثم أردفت بضعف تلهث وعيناها مغاقتان :

« يدك ! يدك ! »

فتردد ينظر حوله وقد ضاق بموقفه . فجذبت « بدرية »
يده ووضعتها بين كفي المريضة التي أطبقت عليها بلهفة .
وأراحت خدها المحموم فوقها وهي تنهد بارتياح من أعماقها
وتبتسم ، ثم نقلتها تحت خدها الآخر . ثم وضعتها على جبهتها
الملتهبة ، ثم على رقبته النابضة . ثم فوق عينيها المتعبتين . وأخيرا
ضغطت بشفتيها عليها ترطبهما . واختلست قبلة أو اثنتين من برد
تلك اليد التي تشبث بها بكلتا يديها كأنما تخشى أن تفات منها .
وراحت تشمها وتمسح بها على وجهها مرارا وتكرارا وتقبلها
على ظهرها وتقبلها ثانية .

فاستغاث عينا الشيخ « عبد الله » بعيني زوجه . فأجابناه
أن نَحْمَلُ ، في حين أسرع هي إليه وجثمت بقرب مقعده .
فوضع يده الخالية على كتفها بحب وحنان وصبر على مضض
من أجلها .

ومرت الدقائق تباعا حتى تمت ساعة وهما على حالهما . ثم
انكسرت حدة الحمى ، وهدأت «ديانا» وانتظم تنفسها ، واسترخت
قسيماها المتقلصة وأعصابها المتوترة ، وأغمضت عينيها وكفه تحت
خدها . فانتظر الشيخ وزوجه حتى عمق نومها واستغرقت في سبات
هادئ ، ثم انسحبا تاركها في رعاية «أم فلفل» التي تسهر عليها ليلا .

وفي غد عادها معا - واليوم الذى تلاه - ثم تعود الشيخ
« عبد الله ، أن يمر على « ديانا ، بعد ذلك آخر كل
نهار قبل رجوعه إلى منزله . وتحسنت صحتها باطراد ، وزال
عنها الخطر .

وقالت له يوما بحزن وهى ترمق ذراعها النحيفتين وقد برزت
عروقهما ، وترهل لهما :

« انظر كيف صرتُ وأصبحت ؟ » .

فتشبث بصره بالخصيرة ذات النقوش الخضر كأنما
هى أهم شئ فى الوجود يجب دراسته والتفرس فيه بإمعان ،
وأجابها :

« أصبحت على أحسن حال بإذن الله . فالمرض طهارة
الدنيا ، تصلى ناره الجسد فيطهر ويشف ، وتصل الروح
فتصفو وتسمو » .

— « ولكنى سأموت ! » .

— « لكل أجل كتاب . لا تأسى . ربنا موجود ! » .

— « ربنا موجود ! ربك أنت يا عبد الله ، ! هنيئا لك به !

ولكنى أنا الضالة النائية فى بيداء الحياة وخضم الرذيلة !

أنا التى لا رب لى ! ألميلأتى نصيب من تفكيره واهتمامه ؟ »

فتمتم : « كلنا عباده . ورحمته وسعت السموات والأرض » .
فضربت « ديانا » صدرها بقبضتها في انفعال مسائلة بالحاح :
« ولكن أنا... أنا ! أتهمه بحياتي البخسة النافهة ؟ أتراني
وقد اقترفت كل معصية وارتكبت كل خطيئة أطمع بعد في
تسامحه وغفرانه ؟ » .

فرفع الشيخ « عبد الله » بصره نحو السماء قائلا :
قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا
من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو
الغفور الرحيم » .

فهتفت « ديانا » بصوت متهرج . وعيناها تمتلئان بدموع
سريعة :

« أحقا يا « عبد الله » ؟ أغفور ربك إلى هذا الحد ؟
أكريم الله إلى هذا المدى ؟ » .

فجاء الصوت الهادئ يثلج صدرها :

« نعم . غفور ربى لا يصد تائبا صادق التوبة ! »

فصاحت وهي تتحامل على مرفقيها وصدرها يعلو ويهبط :

« إذن أشهد يا « عبد الله » أنى تبت على يدك إلى ربك الذى

هديتنى إليه ! ربك - ربى يا « عبد الله » ! » .

فرفع رأسه بدهشة يخالجه أمل :

« ربى ربك ... سيدتى ؟ » .

— « أجل ! أجل ! أيقبلنى ؟ أيرضى بى تحت لوائه ؟ أضمنى

إلى زمرة عباده يشفى قلبى ويهدئ روحي ويملا نفسى بنوره ؟ » .

فقال وهو يهز رأسه إيجابا :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله

فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا

على ما فعلوا وهم يعلمون » .

وتعلقت عيناه - لأول مرة منذ عرفها - بعينها ينظر إليها

بحدة فى صمت مستشفا دخيلتها . ثم سألها بصراحة صارمة :

« أعن عقيدة أم عن غرض تودين اعتناق دين الحق ؟ »

وقبل أن تفتح فمها لتجيب ، رفع يده محذرا وهو يقول :

« إن كان عن عقيدة واقتناع فأهلا بك أختا فى الدين . وأما

والله إن كان عن غرض لم تفصحى عنه ... » . وآ كفهرو وجهه

وأربد : « فبئس ما انتويت . فإن الله غنى عن أمثالك الذين يمدنون

عليه بإسلامهم بين أمم من الناس يدخلون فى دينه أفواجا منشرحي

الصدور طائعين مختارين . فينزل على قلوبهم السكينة التى تطلعهم

إليها ويضع عنهم أوزارهم كما تطمعين ! »

فطأطأت في انكسار ، وقالت بصوت ذليل :

« بل عن عقيدة والله أهفو إلى الدخول في مملكة الله ، في الإسلام - دينك يا عبد الله ، دينك الرحب الواسع الذي يحدث العقل والوجدان ! دين « الله » الغفور الرحيم ! والسميع المجيب كذلك . عن تجربة عرفت هذا . فقد ناديت واليأس المرير يهضرني هصرا وجأرت ضارعة إليه والظلام الدامس يحيط بي مطبقا عليّ . وكنت وحيدة أتخبط . تحتقرني أنت وأمقت أبا نفسي . وكنت صادقة في ابتهالي ، جادة في بحثي عن « الله » الذي يتحدث كل من حولي عنه . يتلظى قلبي ظمأ الارتواء بمعرفته والاحتماء بظله . فقلبي ربك يا « عبد الله » ندائي . وربت رأسي مطمئنا . فاستقر عقلي واستد تفكيره . وأخذ يبدى يخرجني من بحر الضلالة المتلاطم ويوصلني إلى بر الأمان . وأظهر قبول توبتي بفتح أبواب الرزق الشريف أمامي . فشكرت واعتصمت . واليوم في مرضى وقد قرب مني أكثر وأكثر . وأغرقني في فيض كرمه وغفرانه ، وأحاطني بقلوب تحبني صادقة وتعطف عليّ مخلصة . أريد أن أثبت شكرى له وأنضم إلى زمرة القلوب الحبيبة التقية نعيش معا مستظلين بظله الوارف . فلا تقفل باب الأمل في وجهي « يا عبد الله ، ! لا تطردني من جنة الاستقرار الروحي التي تلوح



مأطأت بانكسار، وقالت بصوت ذليل: بل عن عقيدة والله أهدفو إلى الدخول في مملكة الله.

أمام ناظري - لا

فقاطعها قائلا :

« أستغفر الله العزيز الحكيم . من أنا حتى أفعل هذا ؟ إن
ملكه الله دون أبواب . يدخلها خاشعا من كرمه الله وأنعم
عليه بهداه . . »

وتهال وجهه لكلاهما . وضاءه الفرح بنور سماوى ، وقد
وقف رافعا عينيه وكفيه نحو السماء يتحتم متهدج الصوت تأثرا :
« إنك لا تهدى من أحبتَ ولكن الله يهدي من يشاء . . »

وعقد لها منذ ذلك اليوم حلقات لدروس منظمة يلقيها فيها
تعاليم الدين الحنيف ، وضحي من أجالها بأوقات راحته . فكان
ما يرجع من الأزهر الشريف ويبدل ثيابه ويتناول طعامه حتى
يسرع إلى مسكنها فيجلس إليها تحيط به زوجته وبعض نساء الجيرة
يستمعن إليه وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم فى الهدى والتوبة
خاصة وفى الصفات التى تتمزب العبد إلى ربه عامة ، مظهرا الحكمة
والموعظة بالعربية مرة وبالفرنسية مرة أخرى ، إذا ما استعصى
فهم بعض الدقائق على « ديانا » . ثم يعرج على أصول الصلاة
يشير إلى الأخطاء الشائعة عنها مبينا الصواب . وكثيرا ما صلى
بالنساء جماعة إذا امتد الدرس وشاق حتى تجب صلاة المغرب

أو العشاء وهنّ مازلنّ مجتمعات . فكانت «ديانا» تجلس في فراشها معتدلة في انتباه تلاحظهنّ ، وقد مالت إلى الأمام لهفي ، لئلا تفوتها حركة أو لفطة . وفي ذات يوم وكانت قد استردت قواها شيئا استأذنت الشيخ «عبد الله» في الصلاة معهنّ فأذن لها . فاتخذت مكانا في آخر الصف وراء النساء جميعا تقلد حركاتهنّ ، تقوم حين يقمن وتسجد حين يسجدن . ومن يومها لم تفتها صلاة - صلاة صامته تناجي فيها العيون التي تفتحت ربها ، ويكي فيها القلب الذي استيقظ متلويّا من الندم ويسكب توبته دموعا سخينة . وشيئا فشيئا ، على مرّ الأيام ، تعلت ألفاظ التكبير والتعظيم فتردد : «الله أكبر ! الله أعظم !» ، في الركوع والسجود والقيام . ثم حفظت جملا ناقصة ثم سورا قصيرة ، ثم سارت في الطريق ...

وكان شهر رمضان على الأبواب . فلما أهلّ أول يوم منه وملا الكون بسناه ، اصطحبها الشيخ «عبد الله» وزوجه إلى حيث شهرت إسلامها رسميا وأثبتت دخولها في زمرة المؤمنين ، وسُمّت نفسها «فاطمة» . وطابت «ديانا» من الشيخ «عبد الله» وهم في طريق العودة أن يعرج بهم على السوق واشترت خروفا سمينا دفعت ثمنه من آخر قرش ادخرته قبل مرضها الطويل ،

وهي تقول باسمه بالعربية :

« ربنا كريم . ربنا رزاق ! » .

ثم استأجروا عربة يجرها بغل عتيق ويقودها شاب مرح خفيف ، وأناموا الخروف فوقها على جنبه ، وأمسكت « ديانا » برأسه وضغطت « بدرية » على نخذه وقفلوا راجعين .
وعلى عتبة الدار رفعت « بدرية » برقعها عن وجهها وأطلقت أغرودة لفت نشوى أزقة الحى ومنحنياته . فجأوبتها « أم فلفل » من داخل الفناء وهي جالسة إلى طست الغسيل . فأطلت « أم شربات » من بيتها تحابين ببعض الأغاريد قبل أن تعرف ما الخبر . وهرع الناس نساء ورجالا وأطفالا إلى مسكن « ديانا » مهرولين منشرحين يزاحم بعضهم بعضا ، وضحكاتهم تسابقهم ، وأصوات استبشارهم تلاحقهم . كأنما تروى الأغاريد لهم نبأ بهيجا . كالحديث بالطبول عند بعض القوم .

وبلغهم خبر إسلام « ديانا » أو « فاطمة » وانطلق بينهم انطلاق النار فى الهشيم . فصاح الرجال يكبرون الله مهللين تشق أصواتهم عنان السماء ، وغزدت النساء بعصبية وحماس حتى جفت حناجرهن ، ولم يعرف الأطفال كيف يصرفون مشاعرهم ، فراحوا يقفزون ويقفزون . وانشقت الأرض عن فرقة

موسيقية جواله قوامها زمار وطبال . فوقف الحوذى الشاب فوق مركبته وقد لف وسطه بوشاحه القطنى ، واختطف طربوش أحدهم ووضع على رأسه مائلا وزره يترجح إلى الأمام ، وراح يرتقص . واشترك المهنتون جميعا فى التصفيق على وتيرة واحدة ترقص العابد وتنسى الوقور وقاره .

وبعد صلاة العصر نحر الحروف ووزع لحمه على الجيران المعوزين . وأفطرت « ديانا » أو « فاطمة » مع عائلة الشيخ « عبد الله » فى حجرتهم ، وساد بينهم السلام .

أسلمت ، « ديانا » . . . أسلمت وتصوفت . فكعادتها حيال كل عمل جديد تقبل عليه اندفعت تنهل من الدين بجميع جوارحها ، وقد امتزج عقلها وقلبها وتكاتها واندجت عواطفها وأفكارها وتوحدت . وكأنا تعمقت فى تعاليمه تراءى لها فقرها إليه عملاقا فتسكفى مستزيدة ، ويحتد طلبها وراءه .

وكانت « بدرية » حاملا على وشك الوضع . فخاكت « ديانا » لها ولمولودها المنتظر ثيابا كثيرة ، وغزلت سترات صوفية صغيرة طرزت حواشيها بورود حمر وبيض ، وصُفر فقرحت « بدرية » بتلك الملابس أيما فرح ، وتاهت بها على جاراتها .

وجاءها المخاض ذات صباح والبيت خالٍ إلا منها وابنها . أما

الرجال فكانوا قد ذهبوا ، كل إلى عمله . فأرسلت « عمر » الصغير وراء « ديانا » التي خرجت معه لساعتها فلمحتها « أم شربات » من نافذة بيتها تهول مسرعة في الشارع . فأدلت بنفسها حتى نصفها تسألها عما يحدوها على العجلة . فما وقفت على السبب حتى نادى بدورها جاراتها « أم فلفل » و « أم سعدية » و « أم برانته » و « الحاجة عيوشة » وأسرعن جميعا في ملح البصر يلحقن « ديانا » في منزل « بدرية » وامتلات الحجرة بهن واقترشن الحصر جماعات تتوسطهن « الحاجة عيوشة » وأمامها صينية فوقها معدات القهوة ، وقد جاست مطرقة تلاحظ بتلذذ « الشنكة » المعمرة وهي تفور بهوادة ويفوح منها عبير جميل يشرح الصدور .

واستلقت « بدرية » على فراشها أمامهن تتلوى . وأمسكت « ديانا » بيديها مشجعة تهمس في أذنها من آن لآخر بكلمة أو ملحمة فتبتسم لها وسط آلامها . وتربعت جارة فوق المخذة تسند رأس « بدرية » بين راحتيها وتمسح العرق كذا نصحت به جبهتها وصدغها . وقرصت أخرى تدلك قدميها ، واشتغلت اثنتان بتسخين ماء كثير في أوان نحاسية كشفتا عنها أعطيتها حتى يتصاعد البخار ويملا جوف الحجرة فيساعد على سرعة الوضع . . . !

ومرّ النهار وتكاثف الهواء حتى صار خانقا و « بدرية » تجاهد

مستميتة ولا فرج . ولما استقوى الألم وظهرت بوادر الوضع
خرجت «ديانا» تستدعى الطبيب . فزحفت عجوز درديس زحف
القدر إلى الفراش ، ومدت يدا معروقة ذات أصابع يابسة . تنحنى
أطرافها وتسود كجذوع شجرة عجفاء ، ولمست بدن «بدرية» تتحسس
بطنها المتقلص . فصرخت «بدرية» فى نوبة من نوبات الألم
المنتظم الذى يطعن أحشاءها وتتجاوب ضرباته فى ظهرها كطعنات
الحراب ، وضمت قدميها إلى أعلى كأنما لتدراً عنها بعض العذاب .
فصاحت بها العجوز تشجعها :

« ما هذا الضعف منك يا بنتي ؟ اهدئي واستقوى ...
لا تخشى شيئا . سأتحسس فقط لأرى هل يطل رأس المولود
خشية أن يخنق وأنت تتلوين هكذا يمينا وشمالا ! » .

فسكتت «بدرية» مستسلمة ، وهى تعض على شفيتها
الشاحبتين . وتهافتت سائر النساء يحومن حول الفراش بفضول ،
تتمصص إحداهن شفيتها مواسية ، وتقص أخرى بصوت مرتفع
لمن يؤد أن يسمع دون استثناء كيف أشرفت هى على الموت من
عسر وضعها ، ثم كيف أنعم الله عليها بالفرج بغثة فقامت بعافية
وأنما لم تضع ولا حملت ، وتدعو لـ «بدرية» بالمثل . فتدق ثلاثة

صدرها وتمضغ قطعة اللبان التي تتشقق بها بشدة وحماس لحظة .
وتدور بعينها في أرجاء الحجرة من السقف إلى الأرض
وبالعكس في حركة بليغة معبرة . ثم تقول بصوت مولول :

« اسكنى ... اسكنى يا أختى ! لم تر إحدا كن ما رأيت أنا من
أهوال الوضع ! لا أرا كن الله مما قاسيت شيئا ! » .
وتكمل مضغها وتشققها .

وعادت « ديانا » بعد أن حادث الطيب من « تليفون »
البحال . فوجت لحظة على الباب ، وقد ذهبت بها الظنون مذهب
شئ . ثم اندفعت تشق لها طريقا بين النساء . فهاها أن رأت
العجوز غائصة تحت الغطاء يديها ورأسها . فصرخت مستنكرة
وجحظت عينها هالعا وشفقة :

« ماذا تفعلين بها أيتها المرأة ؟ اتركها ... اتركها بربك ! أيديك
القدرة تقترين منها ؟ كيف هذا ؟ ولماذا ؟ ! »

فلم تتحرك العجوز ولا رفعت رأسها . وأجابت إحدى النساء
تربت كفف « ديانا » بيد وترشف من فنجانة القهوة في يدها الأخرى :
« إنها لا تفعل إلا كل خير . فيدها كلها بركة ، لأنها امرأة
مسنة مباركة شاهدت مئات الحالات المماثلة . ومارست مهنتها في
شرح شبابها وكسبت منها ذهابا ! » .

— «ولكن يدها القذرة . يدها القذرة ! آه ياربى رحمتك !
كيف تتركونها تفعل به «بدرية» ما تشاء ؟ وكيف لم تضطروها
إلى غسل يدها على الأقل إن كان لا بد من عملها !» .

فتكاثرت عليها النساء ، كل بكلمة ورأى . فتملصت «ديانا»
من يدهن وهى لا تزال تصرخ :

«دعونى ! دعونى أبعدها عن «بدرية» ! بربكم دعونى !» .

فتصدت لها «أم فلفل» باسمه وهى تقول :

«اعقلى يا «فاطمة» يا بنتى ! هذه عادتنا ، ونحن جميعا
متعودات تلك الطرق » .

ثم مالت على أذن «ديانا» تهمس : «وعلاوة على ذلك فهى عمه
زوجها ، أقرب لها منك !» .

فسكتت «ديانا» وانفلتت رাকضة من الحجرة تملأت
حولها منادية :

«أين الشيخ «عبد الله» ! أين الشيخ «عبد الله» ! أغيثونى به !
«عمر» ! «عمر» ! أين هذا الغلام يا إلهى ! «عمر» ! «عمر» !
ها أنت ذا ! ابحث عن أهلك وناده حالا ! أسرع !» .

فانبرى الفتى قطا متوثبا هابطا إلى الشارع يطوى الدرجات
طيا ، وراح يعدو نحو المسجد الحسينى .

وجاء الشيخ « عبد الله » ملهوفاً . فصاحت به « ديانا » من
أعلى السلم :

« بدرية تضع والنساء حولها . اذهب حالا أرجوك وأت بالطيب
فهو على علم بحالتها . . . أسرع بربك ولا تضيع الوقت سدى ! » .
أجابها من أسفل السلم ، وقد شحب وجهه الوسيم الغض :
« سمعنا وطاعة يا « فاطمة » ، ولكن أرجوك أن تتركى بجانبها
ولا تتركها لحظة لهاته النساء ! » ثم استدار خارجاً وهو يقول
لنفسه : « زوجتى . . . حبيبتى ! » .

وعاد بالطيب . وعلى باب الحجرة المغلقة النوافذ المنكاثفة
الهواء التى تموج بالنساء . تراجع الطيب متأقفا وصاح :
« اخرجن جميعاً من هنا ! » .

فانسلن واحدة تلو الأخرى وهو يتبعهن ببصره ، حتى رأى
« ديانا » فابتسم لها محيياً إذ كان يعرفها من يوم مرضها ، وقال :
« أما أنت فابقى لنساعدينى ! » وشمر عن ساعديه ، وبدأ العمل .
وجثمت « ديانا » على ركبتيها إلى جانب الفراش لتلقى الطفل ،
وتناول الطيب ما يطلب من أغذية وماء ساخن وما إلى ذلك .

ومرّ الوقت مثاقلاً ، ساعة وأخرى ، قاست فيهما « بدرية »
كثيراً حتى نمت الصرخة الحبيبة المنتظرة أجواء الحجرة ، فتنفس الجميع

الصعداء، وارتمت المرأة المسكينة منهوكة القوى يتصبب دنانها عرق بارداً، وتلقفت «ديانا» كتلة اللحم المملوئة في أحضانها بشوق ولققت ذراعها حولها، وأراحت رأسها بخفة فوق الرأس الصغير المبلى، ثم حلت اللقافات تتأمل القدام الجديد - بنت سمراء تجرى في قممات وجهها حلاوة ماء النيل وعذوبته، وتعكس عينها نصف المغلقة لون زرعه الأخضر، فضمتها «ديانا» إليها بحب طاع، وهمست في شعرها الملبد:

«يا حبيبة قلبي، يا بنتي!».

ومرّ يوم قلق، وثمان، ارتفعت فيهما حرارة «بدرية» وسرت ثم اشتطت في ارتفاعها، وساءت حالتها بسرعة عجيبة كأنما هي قطعة من صخر تتدحرج من عل متدهورة في اندفاع إلى هوة ساحقة، وبذات «ديانا» من أجلها المستحيل، وقد أصبح واضحاً أنها فريسة لحمي النفاس اللعينة، فكانت «ديانا» تفرك يديها لهفة وإشفاقاً وأسنانها تصرّ، وهي تكظم غيظها من النساء يطمئننها قائلات:

«هو اللبن يا بنتي - اللبن نعمة الله على الطفل - الذي يسبب ارتفاع الحرارة هكذا، اهدئي وانزكيها الله يتولى أمرها! سليمة بإذن الله! سليمة والنبي!».

فكانت «ديانا» تنظر إليهنّ في صمت حائق، وتمسك لسانها

عن إجابتهن بصراخه . وجاءت بالطبيب ثانية . فها رفع رأسه عن « بدرية » يبتلع يهرها بأسف - وقد قُص ما بين حاجبيه وزم شفتيه - فهمت « ديانا » من نظراته الواجحة كل شيء . فهوت بيدها على فمها تكتم صرخة ملقاة . وارتدت على أريكة بلدية في ركن جاحظة العين . راجفة القاب . ثم دفنت رأسها في ذراعها . واهتز بدنها بنحيب قاس بلا دموع . ثم ألقت بنفسها فوق « بدرية » الغائبة عن الوجود تصيح بصوت باك موجهة كلامها إلى الطبيب :

« أواد ياسيدى ! هذا ما كنت أخشاه ! هذا ما كنت أرهبه يوم رأيت المرأة تلمسها بيدها القذرة الملوثة ! أواد يا « بدرية » ! أواد يا حبيبتي ! » .

واشدّ الحمار . وحام الملك ذو المنجل حول البيت الحزين . وبانت « بدرية » تهرف وتهذى وعيناها مفتوحتان تنادى زوجها وتتوسل إلى الحاضرين أن يجيئوا به إليها ، وهو ملازمها كل الوقت . تمسك يديها يضغطهما بين كفيه ويقبلهما متمتا :

« هاأذا يا « بدرية » إلى جانبك لا أفارقك لحظة . انظري - انظري إلى يا حبيبتي ! » .

فلا تلتفت ، ولا تسمع ، ولا ترى .

وفي هدأة الليل قبل أذان الفجر بقليل اعتدلت « بدرية »

جالسة . وكانت « ديانا » إلى جانبها والطفلة في أحضانها نائمة
تهدهدها وتقطر في فمها قطرات من مغلي الينسون .

وكان الشيخ « عبد الله » قد غلبه التعب والسرور ، فأراح رأسه
وهو جالس القرفصاء على مخدة زوجه جنباً إلى جنب مع رأسها ونام .
فلما رأت « ديانا » أن « بدرية » متنبهة ، وضعت الطفلة بسرعة
في الفراش وهرعت إليها . فابتسمت لها « بدرية » محبة ، وأخذت
يدها بين راحتيها المحمومتين :

« أى « ديانا » ... « فاطمة » يا أختى : أغدقت على ...
كثيراً ... دائماً ... ولكنى ... أنا ... أنا ليس لدى ما أعطيه لك ...
رذا الجميلك ... سواء ... هو ... هو ! » .

ووضعت يدها على الرأس المعمم المتعب إلى جانبها . ثم أردفت
مسرعة كأنها تخشى أن ينقطع عنها التيار الخفى الذى يمدّها بالقوة :
« خذيه ... خذيه يا « ديانا » . هو ... هو لك ... هنيئاً ...
لك به ... وهنيئاً له ... بك يا « فاطمة » ! أباركك ... أباركك ! » .
وازدردت ريقها بصعوبة وهى تلهث : « وابنتى ... ابنتى
يا « فاطمة » ! خذها ... أيضاً - ربيها الى هى وابنتى ... يا حبيبتي ! » .
وتهدج صوتها وخفت . وتلاحقت أنفاسها لاهثة ،
وأغمضت عينيها . فاستيقظ الشيخ « عبد الله » ليصر زوجه

على هذه الحال . فسقط فؤاده في جوفه . وجف حلقه
وارتمى فوقها يربت خديها لينبها ، ويمسح على شعرها بخنان ،
ويناديه بأرق الأسماء .

فتفتحت « بدرية » عينها بجهد ، وراحت تنظر أمامها ذاهلة .
ثم ارتدت إليها فهمها . وتنهت فجأة . فأخذت بيد زوجها الكبيرة
السمراء تقربها من يد « ديانا » الرخصة البيضاء حتى تماسا ثم تماسكتا
فوق بدنها . وقالت تسرق دقائق أخرى من الزمن :

« خذها - خذها يا « عبد الله » ... « فاطمة » ! خذها ... فهي ...
تحبك ... كنت أعلم ... دائما ... أعرف ... منذ ... أول ... يوم !
لا ... لا تترك ابنتي وابني دون ... أم ! « عبد الله » أطعني ...
أبارككما . أبارككما ! » .

ومن فوق الجسد المسجى التقت أعينهما في خشوع ورهبة
وتشبثت . كما التقت أيديهما من قبل . وقد خفت وقدة النار
المشوبة ، وتصافت روحاهما وامتزجتا يصقلهما الحزن المشترك .
فسقطا على فراش « بدرية » يعولان ، وأيديهما بعد متشابكة ،
يسحبان الغطاء على الوجه الساكن .

وخيم الظلام

وساد الصمت . صمت عميق مطلق يفيض أسى وذلا . صمت
بليغ لو جثم لتمثل عبدا رقيقا ناكس الرأس ، مقوس الظهر .
في هذا الصمت الدليل الحقيق تسلمت يد « أشجان » تحس
موضع الصفعة على خدّها البرنزي ، ذى الخال الفاحم تحت
عينها اليسرى .

أما الحاضرون جميعا فقد حبسوا أنفاسهم وتطلعوا مبهوتين ،
وتبدى على صفحات الوجوه ما جاش فى الصدور من عواطف
ومشاعر متباينة : دهشة فى وجوم ، حيرة فى إحراج ، شفقة
فى استنكار .

شهقت « أشجان » شهقة خرساء من هول المفاجأة ، وغاض
الدم من وجهها الذى غشيه اصفرار شديد ، ونضح جبينها
قطرات كبارا من العرق البارد ترقرت لحظة ، ثم سالت على
صدغيها خطوطا رفيعة كالدموع : وجف حلقها . والتصق به
لسانها كأنما غلّ إليه بصمغ ، وسرت برودة فى كيانها كاه

أحسنت لها برعشة هزتها هنأ . وأثنت ذراعها إلى جانبها .
وسمعت قدمها .

تحولات الأنظار من « أشجان » إلى من اعتدى عليها ، كان
واقفاً قبلتها ينظر إليها شرراً . وهي ترتجف كغصن في إعصار
خريف ، ثم بصق بصفة تحقير تطاير رذاذها ، فأصاب
قدميها الخافيتين . وبكل تودة النفع بعباءة الواسعة المغزولة من
وبر الجمل الأملس . وألقى بطرفها فوق كتفه . ثم استدار
ليواجه القوم ...

إنه من أثرياء الوجه القبلي : صعيدى . وغنى ... صفتان
تفسران جو الاعتداد والأنفة الذى يحيط به كالهالة .

وهو فى مستقبل العمر ، وهبه الله بسطة فى الجسم ، مع حسن
تكوين : فارع الطول فى استقامة ، مرفوع الرأس فى أنفة ،
عريض المنكبين فى غير ثقل . ضامر الخصر ، فكأنه فارس
من فرسان قصص البطولة التى يتغنى بها عازفو الربابة ، أو تمثال
حشر بين الناس نموذجاً للرجل كما يجب أن يكون .

وكان وجهه فى لون النحاس المصهور مشرباً بحمرة قائمة .
أما قسماته فكانما نحت بدقة وتفنن ، عيان عميقاً الغور ، حالكنا
السواد ، شديداً البريق . وأنف مستقيم أشم ، وفم وإن اقتصرت

شفتاد شيئاً فهو يبرز صفتين متناقضتين : الصرامة القاسية ، والطية المتناهية . تنطق بهما الخطوط الدقيقة المنفرعة على جانبي الفم الذى ينفرج عن ضحكة عريضة ساذجة تنضح دعة ومرحاً إذا انبسطت أسارير الوجه . ألقا إذا اكفهرت فإن الفم السخى يختفى ليحل محله شق رفيع صارم .

لم تطرف للرجل عين بعد أن رأت الصفعة التى صالحت بها خد الراقصة ، أشجان ، وسط قاعة الرقص . وقف كالطود الأشم . لا يلم وجهه الصخرى الشديد السمرة عن ندم على تهوّر أو اندفاع . ثم أزاح عباءة الصوفية عن كتفيه وألقاها على جسد « أشجان » العارى وهو يرمقها بنظرات تقدح لها ارتجفت لها المرأة وتداعت رعباً ، ونمت أطراف العباءة حولها فى إحكام ، وانزوت وراء « حمدان » وهو يستدير ليغادر القاعة وتبعته مطأطئة الرأس وهى تجر أذيالها بين أرجلها كالكلب المضروب .

• • •

كانت الليلة ليلة عيد الميلاد ، وقد أمضى « حمدان » النهار كله مع « ماجور سيدنى » يتفاوضان فى صفقة ترمى إلى توريد كمية هائلة من الدقيق قبل عيد رأس السنة . وقد اعتذر « حمدان » بضيق الوقت ، وأبدى استعداداه لتوريد الكمية قبحاً كالمعتاد ،

والكن « الماجور سيدنى » كان مصمما ، ومن هنا كان الاختلاف الذى اضطر « الماجور » معه إلى أن يصبح صديقه التاجر التصعيدى إلى النادى ليلا لئتما الاتفاق ، أو يهتديا إلى حل وسط يرتضيه معا .

وكان هذا النادى مقاما فى عائمة راسية على شاطئ الجزيرة ، خاصا بحفنة من كبار الضباط الإنجليز . وقد اختاروا اثنين من جنود المراسلة السنغاليين العمالة ليقوما على خدمتهم . وكانت إدارة النادى مؤلفة من ثلاثة من أكثر الأعضاء عبثا ، وأخصبهم خيالا فى التفنن فى ضروب النسلية السافرة . فنظموا برنامجا شائقا على حد تعبيرهم بمناسبة ليلة عيد الميلاد فى تلك السنة من سنى الحرب الأخيرة .

وتقاطر الأعضاء على النادى مبكرين ، وقد حرصوا على تمضية السهرة كلها به ، واحتلوا أماكن قريبة من حلبة الرقص التى زينت أبعد زينة ، تمثل بهو قصر شرقى ، تتمايل على جانبيه نخيلات بإسقاط كغوان راقصات على أنغام موسيقى خيالية ، وتتوسطه فؤارة تنبثق فيها المياه من أفواه جنيات للبحر أربع يجثمن فوق أركانها ، وتحيط بها أصص الزهر والورود الفواحة ، وبُثَّتْ فى أنحاء البهو أنوار أخفت أضواءها عمدا لتضفى جوا

شاعريا يزيد من شرقية الحفلة ، ويطلق العقول من قيودها تسبح
في أجواء الخيال وتمرح في بيداء الأحلام ، ونثرت الوسائد
والخواشي المزركشة على الأرض في الأركان المظلمة تحت الخنازل
المصنوعة من حبال الورد المتشابك ، وَجَرَتْ الخمر أنهارا يصبها
الأسودان في كنوس القوم من أباريق فضية مجلوبة من
« خان الخليلي » مصنوعة على طراز الأباريق التي تعد ليصب منها
ماء الضوء ...

وبينما الحاضرون في لهوهم وشرههم قرعت دفوف خفية
إيذانا ببدء البرنامج قرعا متواصلا مثيرا يشيع الدفء في الأوصال
ويبعث الرجفة فيها فيحرك من كوامن النفس ورغائبها . ثم انطلق
من يديها عاليا صوت ناي رقيق المناجاة كهمهمة عاشق شاك ، وعلى
أثره دلفت طائفة من الراقصات في غلائل شفافة إلى وسط القاعة
فعلت أصوات الاستحسان ، وارتج المكان بعاصفة من التصفيق
والتهليل ، انفرجت لها شفاة الراقصات المصبوغة رضا وسرورا .
فأقبلن على الحاضرين يتمايلن على صدورهم . ويلقن برءوسهن على
أكتافهم ، ويطلقن الضحكات .

ومرّ الوقت ، وعبق الجو بسحاب الدخان ينقشها الرجال
من مباسم الزاجيل العاجية ، وتكاثف الهواء بالأنفاس اللاهثة

المشبعة بريح الخمر والعرق . وكان الرجل إذا أعجبته راقصة
أخرجها من بين زميلاتهما وجزها إلى ركنه جزا كرجل
الكهوف . وما انتصف الليل حتى دارت الرؤوس . وأبرزت
الغرائز أظفارها غير مقلنة . وتوج الشيطان ملاكا تلك الليلة ،
وتهالك المحتفلون على إرضائه .

فهمهم ، حمدان « يستعيز بالله من شياطين الإنس والجن ،
وما لبث أن مال على « الماجور سيدنى » يستأذن فى الانصراف ،
إذ أنه أمضى العقد معه . وليس له فى هذا الميدان مجال ، ويمم
وجهه شطر الباب .

وبينما هو يقدر مواقع خطاه ، حذر النعثر فى طريقه ، دقت
الدقوف بغنة دقا عاليا كأنما تلفت الأنظار إلى جزء من البرنامج
ذى شأن ، فلم يقف « حمدان » ولكنه النفث بدافع من الفضول ،
فرأى الأضواء تتضاءل وألنى السنغاليين العملاقين يدخلان قاعة
الحفلة متجردين إلا قايلا وقد احمرت أعينهما من الشراب ،
يحملان صينية فضية كبيرة مغطاة بالورود الخمر ، ترقد عليها
راقصة عارية ...

كانت تنظر حوالىها إلى الحاضرين من علياء ، كأهيرة الشمس
فى مدينة وثنية ، تشرق بمجياها على رعاياها وهم يتحرقون شوقا

ووجدنا . ولما توسط العبدان السغاليان القاعة ، أنزلا الصينية ،
وبدأت الراقصة تتلوى كأفعى أحست بالدفء . نهضت ببطء
تحثها نغمات رفاق يطنقها الناي هادسا نشوان ، وقد بسطت
ذراعيها أمامها . وحنّت رأسها ، وأسدت جدائل شعرها الفاحم
الغزير تحجب وجهها وصدرها عن الأعين المطلعة اللهنى . ثم
قرعت الطبول ، وعلت ضربانها متداركات تثير الأعصاب ،
فانتفضت الراقصة تشوى ، وقفزت كالنمرة واقفة ، وانعكست
عليها الأضواء الناصلة ، فظهرت عارية كتمثال نحاسى تألق صانعه
فى إبداع علت له همهمة الإعجاب وتصايح الاستحسان . ثم ألفت
برأسها إلى الخلف فانساب شعرها على الجانبين ، وانقشع كسحابة
عن وجه يبيض الشكل دقيق القسمات ، تشيع فيه سمرة مشربة
بحمرة خفيفة كغلالة الحياء فى وجنات العذارى . أما عيناها
فكحولتان ، أهدابهما ثقيلة ، ونظاراتهما مسترخية كسيرة .

وما إن شرعت ترقص فى حركات مغرية مشيرة ، حتى انبرى
« حمدان » يشرع إليها بصره . وهو مستريب بها ، تنوشه الظنون .
وظل يحقق إليها فى تفرس وتعرف . وأخذت أوصاله ترتعد ،
ولم تكده عينه تلاقى عيناها حتى شعر بأنها تضطرب اضطرابه
الدهشة والذعر ... فلم يبق عنده شك فى أنها هى ... فما عثم أن وثب

عليها يمسك بجذائل شعرها ويلفها حول معصمه . ويلطم وجهها
لظمة كان لها وقع السوط :

— يا فاجرة ... من كان يظن ؟

• • •

خرج « حمدان » من العائمة . وهو يجزّ الراقصة « أشجان »
خلفه ... كانت كالحاملة ، مخدرة الأعصاب مسلوقة الإرادة : ومشيا
من « الجزيرة » إلى « انبابة » ، والليل حالك ، والهواء قارس ،
والسكون شامل لا يقطعه إلا وقع حذاء « حمدان » ذى النعل
الغليظة على الطريق الأملس . حتى إذا وصلا إلى ذلك الجزء
من النيل حيث ترسو السفن الشراعية محملة بالقلل والجِرار
والحبوب ، صاح « حمدان » :

« عليوة » وَيْكَ ! ... أنا « حمدان » ! ... « عليوة » وَيْكَ ! ...

أنا « حمدان » !

فقفز « عليوة » من قاع إحدى السفن كالقط اليقظ قائلا :

أهلا ، مرحبا بالريس ! ... أمرك سيدي !

— حل الحبال وانشر الشراع ، وزجنا في عرض البحر ،

وابقى هنا فى مركب ابن عمك حتى يأتيك منى نبأ .

وكان « عليوة » يعمل ، و « حمدان » يلقي أوامره ، فما

إن أعدت السفينة حتى التفت « حمدان » إلى « أشجان » ،
- أو « ناعسة » اسمها الأصيل - دون أن يتكلم ، ففهمت مرامه ،
وتقدمت مرتجفة تقفز إلى داخل السفينة ، ثم قصدت إلى ركن
تبكى في ذلة ومهانة .

ولما توسطت السفينة عرض النهر المقدس ، وقد نشرت
أشرعتها الثلاثة وامتلات بالهواء ، تنفس « حمدان » الصعداء ،
وأمسك بالشكان : وكانت الريح تصفر ، والموج حائرا
يتخبط بين الشاطئين .

ومرت برهة ، استسلم فيها « حمدان » لأحلامه ، تعود به
القاهرة سنين موصولة ، فمرت حياته مع « ناعسة » شريطا
سينمائيا ... ها هما ذان في « قنا » مسقط رأسيهما ؛ صياد يتيم ناشئ ،
وظفلة مرحة تصحب أباها المؤذن الضرير إلى الجامع كل وقت
صلاة ، ولا تنفك تقفز وتدفع قطعة من الحجارة بقدمها ، ويدها
في يد أبيها : حتى إذا مارأته تهلل وجهها وبدأته بالتحية :
« صباح الخير يا « حمدان » . ، أو : « مساء الخير يا « حمدان » :
كيف أنت والسماك اليوم ؟ » .

فكان وهو الشاب اليافع يضطرب لصوتها تخاطبه ، ويكشف
عن سألته غطاءها من القش ليربها في صمت صيد اليوم من بركات

النهر : فتقول له :

« خير كثير والله ... ما أوسع رزقك يا شقي ! » .
ويجلجل ضحكها عاليا . وتبرق عيناها فرحا بالحياة ، ثم تداعبه
بأن تضرب ذراعه أو تجذبه من كم جلابيه ، فكانت خفقات قلبه
تسرع دائما لمداعباتها . وكان أبوها يزجرها دائما برفق :
« كم نهيتك يا « ناعسة » يا بنتي عن طول اللسان هذا ؟ ! » .
فيتمت « حمدان » وهو يتعثر في مشيته :
« إنها تمزح معي يا عماء ... لا ضير ! » .
وهكذا . نشأت معرفتهما مع طفولتهما ، وتطورت مع شبابهما ،
حتى ذاع حبهما في « قنا » وأصبح حديث القوم جميعا .
وعلى مرّ الأيام اشتد كلف « حمدان » بالفتاة ، وأصبح
هواه لها أكبر من أن يسمعه قلبه ، فصحبها وأباها ذات يوم إلى
دارهما بعد صلاة العشاء ، واستهل حديثه يقول - كأنّ زواجهما
شئ مفروغ منه منذ زمن - :

« متى يكون العقد يا عماء ؟ المهر معي والحمد لله » .
وربت صدره ، حيث تكن ثروته الصغيرة في أمان ، داخل
كيس من القماش ، يربطه إلى عنقه بحبل .
فتהלل وجه الشيخ الطيب ، وأسرعت أصابعه في عدّ حبات

السبحه ضربا ، وأجاب وقد انفرج فمه عن ابتسامة كبيرة :
الأمر أمرك يا حمدان ، يا بنى : تعقد على « ناعسة » الليلة
أو غدا ، هذا شئ يخصك .

— كان بوذى الليلة والله ، لولا أن الوقت متأخر ، ومأذون
بلدتنا لا يغادر بيته بعد المغرب ، ولو دعاه العمدة . ولكن
قسما بالعلی العظیم لأخذت امرأتى معى الليلة القادمة أية
كانت الظروف .

— لیکن ما تريد يا « حمدان » ...
وتزوجا . لم یکن له بیت ، فأخذها معه إلى قاربه ، وكان قد
أقام فوق سطحه ظلة صغيرة من الخشب يبيتان فى داخلها ،
ویمضیان نهارهما فى بسط الشباك وإلقائها على صفحة النهر الواسعة
المباحة للساعین إلى الرزق جميعا .

لم یرزقا أطفالا ، ولكن ذلك لم يؤثر فى حبهما ، على الأقل
فى حبه إياها . كان سعيدا راضيا بنصيبه وبزوجته ، وكان یظنها
كذلك ، حتى بدأت تتذمر من عیشتها البدائية ، وتظهر مللا
وفتورا فى مساعدتها له ، وتشید بما سمعته عن حظ فلانة صديقة
طفولتها مع زوجها الذى یهئ لها عیسا هائلا ناعما . وحظ ابنة
جارتهم الذى وصلها بتاجر مثر تلعب بماله لعبا . وقد تقبض

قلب « حمدان » حينذاك لهذا الحديث الذى كان أول نذير ضرق باب هنائه وهتد عشه .

عمل « حمدان » ما وسعه لإرضائها : اصطاد الليل كله ليضاغف كسبه ، ورسا بقاربته عند « الأ قصر » وغيرها من البلدان التى يغشاها الأثرياء ، وحمل صيده بنفسه إلى الفنادق والقصور ، ووزعه على المطابخ ، وتعلم كيف يتشبث بالثمن الذى يقدره ويعلى صوته إذا ساومه فيه أحد : وكان إذا عاد مع الغروب منهوك القوى ألقى بالنقود فى حجر « ناعسة » ونفض كيسه أمامها ، ثم استلقى عند قدميها ينظر إليها بعين الواله : كان رضاها عنه ثمنه . ودوام عيشتهما معا مرّماه : ولكن زادت فى كبريائها ، واستفحل الأمر ، حتى رضى - وهو الصعيدى الأبنى الغيور - أن تصحبه فى تجواله فى المدن التى يرسوان عندها للبيع معه . والترويح عن النفس ، والفرج بالدنيا - على حد قولها ... وليته لم يرض ! ...

عض « حمدان » بنان الندم ، وهو يدير الشكان بعنف فى غيظ مكتوم ، وتهتد من قلب مكوم ...

لقد تفرّجت « ناعسة » واطلعت على الدنيا ... أى دنيا ؟ ...

دنيا المال والجاه ، دنيا الترف والبذخ في الفنادق الكبرى ...
كان يدلف هو إلى المطبخ يحمل بضاعته ، في حين تتسالى هي
إلى الحديقة تختلس النظر خلال النوافذ إلى الردهات والغرف
الداخلية الغاصة بكبار القوم من الأثرياء والسيّاح ... السيدات
يرفان في الحرير والقטיפه ، وتضوئ صدورهن ومعاصمهن بالحليّ
والجواهر ، والرجال ناعمة بشراتهم ، هامسة بمراتبهم ، لهم منظر
وجيه ، وجاذبية خلابة ، جعلت عين « ناعسة » تتعلق بهم في
إعجاب ، وهم فوق ذلك ينسمون في رقة ، ويحابون من
لا تدانيها حسنا !

ولجأة اختفت ... اختفت اختفاء غامضا من المدينة ، بل من
الصعيد كله ، بل من حياته ! ... بحث عنها « حمدان » في كل مكان ،
وذرع عرض النهر شمالا وجنوبا ، وسأل عنها في كل قرية وكل
مدينة ، صغرت أو كبرت ، قربت أو بعدت . وتحدث إلى كل
إنسان لقيه في شأنها ، ودقق في سؤاله عنها ، واستحلفه بكل غال ،
حتى وصمه الناس بالجنون .

ومرت السنون لم ينسها ، ولكنه أخفى ذكراها في ركن
قصي من قلبه ، ورجع إلى عقله ، وجمع شجاعته وشتات نفسه ،
وسأل الله الصبر والقوة ، واستأنف حياته وسعيه ... أدلى بدلوه

فى كل عمل وكل تجارة . ووضع قلبه فيها زاوله . ففجح نجاحه
بأمره - لم تستهوه امرأه بعد « ناعسة » . فقد كان من ذلك النوع
من الرجال الذى يفتح فؤاده مرة واحدة . ويشعل جوى
ووجداء . حتى إذا ما قدر لناره أن تحب . احترق وأصبح يحمل
مكان القاب حفنة من الرماد . وربما كان ذلك وحده سر ثروته
التي تزايدت وتضاعفت فى سنى الحرب . حتى أصبح وهو بعد لم
يتخط العقد الثالث من عمره مرموق المكانة بين تجار الخيوط .
لم يسمع عنها كلمة فى كل أسفاره . طوال هذه السنين . حتى
لقبها هذه الليلة الليلية . على تلك الحال الشنعاء . فى نادى
الضباط الإنجليز .

انكشفت « ناعسة » فى ركن صغير من السفينة الشراعية
مطارقة . موصولة نظراتها بالأرض . وتقدم الليل . و « حمدان »
فى سفره المجتهد . لم يفتح حديثاً مع « ناعسة » ولم يناقشها الحساب .
فسكن روعها قليلاً . واستردت طمأنينتها شيئاً . وأسفر القمر
يرسل ضوءه الفضى الوادع . فجعلت « ناعسة » تبعث النظر إلى
« حمدان » فتراد ساجحاً فى أخيلته . آخذاً بسكان السفينة . فسألت
نفسها : ما لها خشيتته ؟ وماذا أفرعها منه ؟ وكيف تظن أن يوقع بها

مراة أليس هو ذلك العاطفى الأبله كما كان دائما ، يسبح فى أجواء الخيال ، ويخاف حساب ربه ، ويؤمن بالقدر ، ويرضى بالنصيب ، ويقبل ظاهر يده وباطنها حمدا على الفضل الجزيل ولو بات طويلا خاويا ؟ إن ثورته تحاكي ثورة بركان تشتد وتزلزل ، ثم تجو وتختف مكانها وكأنها ما كانت . إن موقفها ليس سيئا بالدرجة التى تخيلتها أول وهلة ... بقى أمل ! ...

تمدت « ناعسة » بارتياح لحواطرها التى زادت بها اطمئنانا ، فاعتدت فى جلستها ، وتابعت سلسلة أفكارها ، لتنظر أولا فيما تفعله ، لنمحو الصورة القبيحة التى رآها عليها الليلة . إنها امرأة عملية واقعية . لا لف ولا دوران عندها فى نيل مرامها والفوز بمآربها . فلتشهر فى وجهه أقوى سلاح . وهل أقوى من الحب - فى عرفها - على محو كل قبيح ، أو على الأقل فى التغاضى عنه ؟ ماذا عليها لو حاولت إيقاظ حب « حمدان » لها ثانية ؟ لقد كان مشبوب العاطفة نحوها دائما ، يقدر جمالها ، ويرى عظمة الله فى إبداع تكوينها . وكانت بسمتها تسعده ، وغضبها يؤرقه . إنها ما برحت جميلة . بل زادت أنوثتها نضجا .

شعرت « ناعسة » لهذا الخاطر بالنشاط والدفء يدبان فى كيائها . ويسكبان فى روحها الثقة . فأخذت تجرى أناملها خلال

جدائلها الفاحمة الحريرية تمشطها وترتبها ، وعضت شفتيها في لطف تدغدغهما مرارا ، حتى جرى فيهما الدم موزدا . ثم مالت على حافة السفينة ، ومدت يدها في حذر إلى الماء ، وهي تختلس النظر إلى « حمدان » ، فلما استوثقت أنه لم ينتبه لها ، أخذت حفتين شربت إحداهما ، وغسلت وجهها المصبوغ بالأخرى وجففته بطرف عباءتها . ثم ألقت برأسها إلى الخلف في حركة كلها دلالة تعلمتها من المدينة ، وأسبلت جفنيها الكحيلين .

— « حمدان » !

سرى صوتها في الليل رقيقا هامسا كالنسيم ، وقد حاولت جهد طاقتها - وهي ممثلة الفطرة - أن يخرج نداءها من أحلامه بلطف ، ويحمله على أجنحة رفاق إلى الأيام الغابرة يذكره بالماضي وطهارته ، وينفض عن غرامه غبار الزمن ، ويمحو عن جبينه غصون الغضب ، ولكن الرجل لم يلتفت إليها ، وكأنه تمثال ثبت في مؤخرة السفينة ، ويده على سكاكها ، وعيناه سابحتان على البحر الجاري أمامه .

— « حمدان » ، يا أخى !

علا صوتها عن الهمس قليلا هذه المرة ، يشوبه عتاب ورجاء ، ويعتريه في نبراته اضطراب : وتمللت المرأة في جلستها .

وعيناها متعلقتان بوجه الرجل الرابض أمامها كالقدر ؛ وقد
انتضت كل أسلحتها ، وشحذت كل مواهبها وغرائزها ، وأهابت بها
أن تواجه معها العاصفة .

قامت من مكانها ببطء وتردد ، وفجأة أتت بحركة عجيبة ؛
انزلت بجسمها كالحية على أديم السفينة ؛ وزحفت إلى « حمدان »
على فخذيها وكفيها ... كانت تتحسس طريقها بحذر ؛ فإذا ما ضرب
الموج السفينة ، أو هاجمتها ريح الشمال عاتية ، فاهتزت ومالت
بعنف من جانب إلى آخر ؛ تشبثت « ناعسة » بالألواح الخشبية ،
وأنشبت أظفارها كالهرة المذعورة ، حتى يهدأ النهر ، فتستأنف
زحفها حينئذ نحوه ، حتى إذا أصبح ما بينه وبينها لا يزيد على بضعة
أشبار ، جثمت على ركبتيها تواجهه .

هنا صحا « حمدان » فرفع إليها جفنيه المثقلين بالهموم والسهر ،
وحدجها في صمت ، وقد غلت مراجل غضبه دفعة واحدة ،
وفقطب جبينه ، وكشر عن أنيابه ، وزجر كالأسد الثائر ، وضرب
السكان بقبضة يده ، ودفعه عنه ، تاركا إياه يفلت منه ، وقفز واقفا ،
فتراقصت السفينة ، وقد اختل توازنها ، وتلاعب بها الموج
المتلاطم كأنها كرة في يد طفل لاه ... وتدحرج « حمدان » إلى قاع
السفينة مع « ناعسة » جنبا إلى جنب ...

كان البرد شديدا . والريح عاصفة . والنهر غاضبا . فاستخفت
الحقيقة عن « ناعسة » التي ما كادت تشعر بجسد « حمدان »
ملتصقا بها حتى انشرح صدرها . وأقبلت عليه تضمه وتلثمه
في لهفة مجنونة . فنذت عنه صرخة الملسوع . وطوّح ذراعها
متقززا ، ثم قام يحتم بركبتيه على صدرها . وضغط رأسها بكفه
الكبيرة فوق حافة السفينة ، فشلت حركتها . وجحظت عيناها .
وعلى ضوء القمر الهزيل قرأت « ناعسة » في وجه « حمدان »
المتقلص . وفي عينيهِ المحققتين ، وعلى فمه المطبق الصارم ،
ما قدّر لها على يديه : فصرخت صرخة رابعة تحشرجت في حلقتها
وضاعت في الفضاء الواسع .
واستلّ « حمدان » في سرعة شيئا صغيرا لامعا من طيات
ثوبه ، وجمع صائحا :

« بسم الله ، الله أكبر ! » .

وأعمل مطواته في رقبتها ، فتدفق دمها غزيرا قانيا يصبغ
صفحة النهر السوداء . .

ولبت الرجل أمام « ناعسة » يتأملها مليا على ضوء القمر ،
وألنى نفسه يتدانى منها ويأخذ رأسها بين يديه ، ويداعب شعرها
بين أنامله ، ثم هوى على شفّتيها يقبلهما في شغف وحنين ،



ولبت الرجل أمام « ناعسة » يأماتها مليا على ضوء القمر ...

وهو يجمع :

« كان قلبي يحبك والله يا « ناعسة » ... ما كان الأمل أن
تفعل ذلك ! » .

فتوارى القمر مسرعا وراء السحب الكثيفة القائمة ، كأنما به
رعب مما رأى ، وشحبت النجوم المبعثرة في السماء وَجِةً ،
وهدأت صفحة النهر الهرم الصُّمُوت ، بعد أن طوى ذراعيه على
سر آخر من أسرار أبنائه وَخَيَّم الظلام !

ريحان أغا

« حاضر يا أمى ! » .

« أمرك يا أمى ! » .

لم تكن تجيبها بغير ذلك . ابنة طيعة خضوع ، نسمة فجر رقيقة ، تخطو على استحياء متعثرة فى سِنِي عمرها الخضر : ست عشرة سنة ، ينقصن شهرا أو شهرين . قسمانها دقيقة تطل من بينها عينان خضراوان تخفى نظرتيهما الدهشة المتطلعة أبدا أهداب ثقيل . لها مبسم كأثما طوحت وردة بإحدى وريقاتها البضة على صفحة وجهها ، فهوت نابضة تتوهج وسط بياض ناصع .

وقفت « ملك » تفرك جوانب ثوبها مضطربة ، وبصرها موصول بديباجة السجادة العجمية الثمينة التى تنبسط فى الردهة الفسيحة .

وقالت أمها - تلك السيدة الوقور ذات المهابة والجبروت -
وهي تعتدل فى جلستها فوق الأريكة الوثيرة الحواشى ، تنساب

بين أناملها حبات سبحة من الحجر الأبيض :

« قلت لن تذهبي ، فلن تذهبي . لا أحب الصديقات ولا سيرة
الصديقات . أتعين قولى ؟ » .

— « نعم يا أمى ! » .

— « ستفذين ما أقول حرفاً بحرف » .

— « أمرك يا أمى ! » .

فأسبلت « السيدة الكبيرة » جفنيها رضا ، وصفقت تنادى :
« قهوة الصباح يا ولد ! » .

فانشقت الأرض عن زنجى صغير يحمل معدات القهوة على
صينية تتضوأ نظافة ، كأنما كان يقف بها وراء الباب . فوضعها
على الأريكة إلى جانب سيده ؛ ومشى القهقرى يغادر الحجرة ،
وعيناه المذعورتان عالقتان بشفتى سيده ، يراقب ما عسى أن
تفقوه به من مطلب . . .

— « بنات مائعات فى شرح الصبا ! ماذا يفقهن من شئون
الدنيا ؟ أين أهلهن ؟ كيف يبحن لهن الانطلاق كما يشأن ؟
رحم الله أيام زمان ! » .

وتمصصت « سعادات هانم » شفتيها . يهتز رأسها الضخم يمنة
ويسرة تحسرا على زمن مضى لا أوبة له .

ولبثت برهة تنظر إلى ابنتها شزرا ، ثم أردفت :
« اذهبي الآن إلى مدرستك ، وإياك أن تعيدى على مسمى
دعوة صديقة لك تصاحبينها في زيارة أوزهة . إني لا أطيق
هذا التمتع . انتهي لدروسك ؛ فذلك والله أجدى عليك وأفضل »
— « أفعل يا أمى » .

وتدانت « ملك » منحنية تقبل يد أمها ؛ ثم جزرت قدميها
منصرفه في خزي ؛ تحمل حقيبة كتبها تحت إبطها .
هبطت درجات السلم الرخامى مهرولة ، وهي تشفق بدموع
حبيسة . ودلفت إلى المركبة المنتظرة على باب القصر الكبير
الذى ورثته أمها عن جدّها ، وهو لا يحوى إلا الأم وابنتها ،
تقوم بأمرهما فيه حفنة من الخدم القدامى آلوا إليهما فيما
آل من التركة .

وكان زوج الخيل « المسكوفى » الأصيل يدق الأرض
بحوافره تحفزا وقلقا ، ويصهل فى الفينة بعد الفينة ، كلاهما
مرفوع الرأس ، تنتشر أذناه ، وتختلج خياشيمه ؛ فيسارع
السائس إليهما مهذئا ، يربت ظهرافنيا ، أو يتحسس عنقا مخمليا .
ولما ظهرت « ملك » هبّ الجمع يستقبلونها واقفين : السائس
والخوذى ودرىخان أغا ، الذى أسرع إلى جانبها ، صاحب حق ،

يحياها ويحمل عنها حقيبتها ، تضيء سحنته القائمة ابتسامة عريضة .
فأجابته باقتضاب ، وجلست مطرقة ساهمة ، وقفز هو يتخذ له
مجلسا إلى جانب الخوذى ، على حين انطلقت الخيل قذائف تهب
الطريق الخالى المألوف لديها نهباً ، ميممة شطر « مدرسة ...
الثانوية للبنات » .

كان الوقت بعدُ مبكراً . فترددت « ملك » على عتبة المدرسة
تتلفت حولها مقطبة الجبين مغضبة ، فابتسم « ربحان أغا » بتحنان
وهو يتأملها ، ثم مال على أذنها هامساً :
« أى بنيتى . ليس هناك سوى أمك ، فهى لك الملاذ فى هذه
الدنيا ، وهى الناصح الأمين . لا تغضبى منها ، فليست والله بمتجنبة
عليك ، ولا تبغى من وراء حزمها معك سوى مصلحتك ودفع
الضرر عنك ! »

فاضطرم حياها ، وأجابت بحدة :
« ما أظنها والله إلا مبغضتى - يلذ لها إذلالى ويسعدها إشقائى !
أو تلك حياة أحيائها ؟ »

فرفع الرجل عينيه مبهوتا نحو السماء ، وقلب كفيه
يسطهما أمامه :

« اسألى الله سبحانه أن يديم عليك - يا طفلاتى - تلك الحياة

التي تمنينها ، استغفرى ربك ، أنت حتما لا تعنين قولك ،
أنت تهدين ! . .

« كيف تقول ذلك يا عم » ربحان ، ؟ أو سمعت وصف
« سوعية » لحياتها المنزلية الهائلة ؟ و « فكرية » و « لواحظ » ؟ كلهن
يتمتعن بالحرية ، ويتصرفن في أفعالهن ، وينظر إليهن آلهن النظرة
إلى من شبَّ عن الطوق ، له كيان ، وشخصية مستقلة ، ورأى . إذا عن
لإحداهن الخروج في أى ساعة من ساعات اليوم خرجت ولم
يقف في طريقها أحد . وإذا أعجبها ثوب اشترته دون استشارة
أمها أو عمتها أو خالتها . أما أنا

واندفعت الدموع متزاحمت إلى مقلتيها ، وارتعدت شفتها ،
فأسرعت تلقفها بأسنان صغيرة ناصعة ، وهي تعبت بطرف قدمها
في التراب توارى احتياجا .

فأحاط « ربحان أغا » كنفها بذراع معروقة قوية ، وسار
بها خطوات داخل فناء المدرسة الخالي إلا من بضع فتيات
انتثرن في أرجائه . فدفع حتمية الكنب في أحضانها ، وقال يعرك
أذنها مداعبا :

« سيكون لى معك حديث طويل حين رجوعك إلى البيت .
سأنتظرك كالمتابع بالمركبة فى الثالثة والنصف تماما على باب المدرسة ،

فأطوف بك حول « الجزيرة » أنزهك حتى تهدأ أعصابك ، ويرتد عقلك الشارد إلى رأسك الصغير ، وبذلك تستطيعين التفاهم معي ووعي نصائحي . اتفقنا ... ؟ » .

ومسح على ضفيريتهما الحريريّتين بزهو . وبغزة انحنى يحملي في وجهها بعينيه الضيقتين لما بهما من حول ، ثم أخرج لسانه يلحق به الهواء ليضحكها .

فتطلّقت أساريها ، وقد زال توتر اللحظة ، وغضبت بصرها وأجابت في استكانة :

« نعم يا عم » ربحان « - اتفقنا ! » .
فأكبّ يقبل مفرق شعرها ، ويدفعها أمامه يحضها على التقدم واللعاق بزميلاتها ، وهو يتمتم :

« حماك الله يا صغيرتي الطاهرة من الوسواس الخناس ، إياك ورفيقات السوء ... مع السلامة » .

فلوّحت له بذراعها في وجوم دون أن تلتفت إليه .
وما انحدرت المركبة به في منحى ؛ وغاب كثر عجلاتها . حتى برزت ثلاث فتيات من وراء شجرة كافور كنّ يختبئن وراء جذعها الغليظ ؛ فتحلقن حول « ملك » ضاحكات ، ساخرات ، يستند بعضهنّ إلى بعض متمايلات ؛ كأنما لا يملكن استمساكا ولا صدا

لعبهن . وجعلن يشرن إليها ويتهامسن فيحتد مرحهن ويعنف ؛
ثم يترنخن ويهترزن بشدة . حتى لشكاد كل منهن تستلقى على قفاها
وهى تضرب نخذيها وتقفز طربا .

فالتبت وجنتا الفتاة ، وتسمرت مكانها تزدرد ريقها
بصعوبة : فاصطنعت بسمة عرجاء ، وغمغمت برجاء :
« صباح الخير ، .

فانفجرن هازئات فى ثورة كظيمة .
قالت « فكرية » ويذاها على خاصرتيها :
« كيف تحذثيننا ياسيدة الكل ؟ ألسنا من طينة غير طينتك -
لا نتسب إلى أسرتك الكريمة ؟ ، .

وصاحت « لواحظ » تلوح بقبضتها فى وجه « ملك » المذعور :
« أنت على شاكلة وحدك ، وبنات المدرسة كاهن على
شاكلة أخرى ، كما يفهمك خادمك أسود الوجه - خسف
الله به الأرض ؟ ، .

وتدخلت « سعدية » محددة :
« ماذا تظنون أنفسكم يا قوم ؟ سادة والناس عبيد ؟ شىء
من التواضع يا خاق الله ! ، .

وتجمهرت البنات تدعوهن المناقشة والضجيج ، حتى اتسعت

الخلقة ، فشملت من كان في الفناء ، واشتركت كل من عن
لها الحديث بكلمة جارحة أو ضحكة ساخرة . وعلت همهمة
الاستنكار ، وغمغمة النفور والحقد ، ودمالك ، يذنب زائغة
البصر ، حائرة الدمع ، تنفرج شفتها في ابتهال صامت ، ويغشى
محياتها حزن وهلع .

ولم ينقذها إلا دوى الجرس مجلجلا يؤذن بإبتداء الدرس ؛
فانقضت البنات من حولها محنقات ، وقد أجمعن على مقاطعتها
ونبذها من زمريتهن .

وفي حجرة الدراسة جلست مشتتة الفكر ساهمة ، مخضلة
الآهذاب . فلما سألتها المدرس عما استذكرته في يومها ، تلجلجت
وزاغ عنها الجواب الصواب ، وهي التي تمضي الليل مكبة على
كتابها تحت رقابة أمها ، فأعاد عليها سؤاله ، وحاورها ليخرجها
من صمتها ، وضيق عليها الخناق ؛ فانفجرت باكية وسط قهقهة
البنات الجذلة الشامتة .

وفي قاعة الطعام اندفعن جاححات صاحبات يشغلن كل المقاعد
ويدفعنها جانبا بالمناكب والمرافق ؛ فارتطمت بجدار وقفت
بحواره منكسة الرأس ، تفرك كفيها وتعض شفتيها حرجا ،
والبنات يتنافسن في إلقاء المضام حولها ، وهن يرسلن صفيرا داعيا

كمن يحضر كلبا على طعام .

وهجمت عليها إحداهن تخمش ذراعيها البضتين في تشف ،
تدميهما بأظفارها القذرة ، وهي تموء كهزة غصبي :

« لا تؤاخذيني ! فأنا بطبيعتي أمقت الكلاب ! » .

فاستغرقت الأخريات في ضحك أهوج مستمر .

وما انتهى النهار ، حتى زحفت « ملك » مهتمة ، مضضعة
الأعصاب ، مسلوبة الحواس إلى المركبة المنتظرة على باب
المدرسة . فانزوت في ركن منها تدس رأسها في أحضانها ،
مصدوعة الفؤاد ، وتنشج نشيجا عاتيا جافا هز كيائها يزلزله .

وفي غدها ذقت الأمرين ، وتنابت عليها الأيام تعاني
الآهوال من كيد البنات ، وسعة حيلتهن ، وتعدد فنونهن لإذلالها
وتحطيم كبريائها وإرغام أنفها . حتى اهارت مقاومتها . ففأثحت أمتها
ذات ليلة في أمر نقلها إلى مدرسة أخرى تبدأ فيها حياة جديدة ،
وتنشئ علاقات طيبة مع زميلات تطمع أن تجدهن أرق حاشية
والطنف نفسا ، وأقرب إلى روحها من زميلاتهن في هذه المدرسة .
فتقر عينا ، وتهدأ بالا . ويفتح ذهنها لدروسها كسابق عهدها .
دافعت عن قضيتها بكل ما في كيائها من ذرة حيوية . تكلمت
بحماس . وحاولت جاهدة أن تشعر أمتها بما تقاسي من اضطراب

الحلقة ، فشملت من كان في الفناء ، واشتركت كل من عن لها الحديث بكلمة جارحة أو ضحكة ساخرة . وعلت همهمة الاستنكار ، وغمغمة النفور والحقد ، ودملك ، يذهن زائغة البصر ، حائرة الدمع ، تنفرج شفتاها في ابتهال صامت ، ويغشى محياها حزن وهلع .

ولم ينقذها إلا دوى الجرس مجلجلا يؤذن بابتداء الدرس ؛ فانقضت البنات من حولها محنقات ، وقد أجمعن على مقاطعتها ونبذها من زمريتهن .

وفي حجرة الدراسة جلست مشتتة الفكر ساهمة ، مخضلة الأهداب . فلما سألتها المدرس عما استذكرته في يومها ، تلجلجت وزاغ عنها الجواب الصواب ، وهي التي تَمْضَى الليل مكبة على كتابها تحت رقابة أمها ، فأعاد عليها سؤاله ، وحاورها ليخرجها من صمتها ، وضيق عليها الخناق ؛ فانفجرت باكية وسط قهقهة البنات الجذلة الشامتة .

وفي قاعة الطعام اندفعن جامحات صاحبات يشغلن كل المقاعد ويدفعنها جانبا بالمناكب والمرافق ؛ فارتطمت بجدار وقفت بجواره منكسة الرأس ، تفرك كفها وتعض شفتيها حرجا ، والبنات يتنافسن في إلقاء المضام حولها ، وهن يرسلن صفيرا داعيا

كمن يحض كلبا على طعام .

وهجمت عليها إحداهن تخمش ذراعيها البضتين في تشف ،
تدميها بأظفارها القذرة ، وهي تموء كهزة غصبي :
« لا تؤاخذيني ! فأنا بطبيعتي أمقت الكلاب ! » .

فاستغرقت الأخريات في ضحك أهوج مستمر .

وما انتهى النهار ، حتى زحفت « ملك » مهتمة ، مضعضعة
الأعصاب ، مسلوبة الحواس إلى المركبة المنتظرة على باب
المدرسة . فانزوت في ركن منها تدس رأسها في أحضانها ،
مصدوعة الفؤاد ، وتنشج نشيجا عاتيا جافا هز كيائها يزلزله .

وفي غدها ذاقت الأمرين ، وتابعت عليها الأيام تعاني
الأهوال من كيد البنات ، وسعة حيلتهن ، وتعدد فنونهن لإذلالها
وتحطيم كبريائها وإرغام أنفها . حتى اشارت مقاومتها . ففأثحت أمتها
ذات ليلة في أمر نقلها إلى مدرسة أخرى تبدأ فيها حياة جديدة .
وتنشئ علاقات طيبة مع زميلات تطمع أن تجدهن أرق حاشية
والطاب نفسا ، وأقرب إلى روحها من زميلاتها في هذه المدرسة .
فتقر عينا ، وتهدأ بالا ، ويفتح ذهنها لدروسها كسابق عهدها .
دافعت عن قضيتها بكل ما في كيائها من ذرة حيوية . تكلمت
بحماس . وحاولت جاهدة أن تشعر أمتها بما تقاسي من اضطراب

نفساني يربك عقلها ويضعف ثقتها بنفسها ، ويجعلها أضحوكة
مجتمعها الصغير . فتحت لها قلبها ، وكشفت عن مشكلاته التي
استعصت عليها . أطلعتها على تدهورها أدبيا ومعنويا ، وهي
لا تملك إلا الحسرة على حالها . وصفت لها قسوة النيار الذي
يجرفها دون ما شفقة ، وأفصحت عن عجزها عن مقاومته . قبلت
يدى أمها وانحنى عليها تمرغ وجهها على ركبتيها ، وهي تشرق
بدموعها . وتستحلفها كي تنقذها وتعمل على إرجاع السكينة إلى
روحها المزعجة .

فاعتدلت « سعادات هانم » في جلستها ، تشمخ بأنفها ،
وتنفض عن عنقها الذراعين المتشبثين به في ابتهال . وصاحت
بصوتها الجهورى الذى طالما ارتعدت له فرائص أهل الدار :
« ما هذا الهراء الذى أسمع ؟ ما هذا الضعف والخور ؟ أمن
أجل حفنة فتيات وضيعات تفرين وتتركين لهنّ المجال ؟ مالك
وما لهنّ ؟ أنت فى حالك وهنّ فى حالهنّ . لا أستطيع فهم قولك
إنهنّ سبب اضطراب ذهنك . أحاجى باطلة ! أنت الخاملة ...
الكسول ... بطيئة الفهم ! »

ففتحت « ملك » فمها تحاول « إفهامها » . فكان نصيبها لكمة
طارحتها أرضا على ظهرها . وأمرها بالذهاب تَوّا إلى فراشها .

فكفكت المراهقة الحيرى دموعها ، وتحاملت تللم نفسها ،
وقد زمت شفتيها فى حزم ، وانسحبت دون أن تلتفت
ثانية إلى أمها .

وفى الصباح ، سعت إلى الفتيات ذليلة مغلوبة على أمرها
تسترضى وتسترحم ، وتتقرب زلنى : حتى رضين عنها وعفون
بعد لأي ، مشرطات كى يقبلنها فى زمرتهن أن تجاريهن فى كل
أفعالهن دون تردد ولا ترفع . فأكبت التعسة لطفى ' تهج منهجهن
وتعب عبًا من دستورهن : اختارت مدرسا ' تحبه ، وتعاكسه
بغمزاتها ولمازاتها أثناء الدرس ، ومضغت ' اللادن ' ، ونفثت
دخان اللفائف مستخفية معهن وراء دورة المياه ، وشرعت ترشو
البواب وتتسلل بصحبتهن إلى دور الصور المتحركة تنظر بعين
والهة إلى أبطال التمثيل ، وتحملق فى أجواء الخيال تحلم بفتاها ،
وراحت تجوس معهن الشوارع والمتنزّهات العامة تلهو وتمرح ،
ويعاكسها الغوغاء فتجاوبهم وتشاكسهم ، وتتلقى عنهم فنون
الحياة كما يفهمونها ...

وكذبت على « ربحان أغا ، عندما تأخرت فى جولاتها ، زاعمة
أن سبب تأخيرها دروس إضافية تتلقاها بعد انقضاء المدرسة ،
وتشدقت بالقصص والروايات الشائنة التى تشيعها سيئات الخلق

عن مدرّساتهنّ وصويحيباتهنّ . وتلقّت أوّل قبلة على ثغرها من مدرّب «التنس» بالمدرسة . واشتطت في حماقاتها وطيشها . وفاقّت البنات مجونا واستخفافا ، حتى عقدن لها لواء الزعامة عن طيب خاطر . كيف لا وقد ادّفعت تسترضيهنّ فتنفق عن سعة ، وتشتري لهنّ أكواما من الحلوى والفاكهة وكل ما اشتته نفوسهنّ . وتحملت وحدها دفع الرشوات ، فولّيتها تنظيم المغامرات وفق هواها .

كانت تقترض من «ريحان أغا» فلا يبخل عايتها مربّيها الحنون . بل يسخو لها بما سألت من حرّ ماله . فلما لم تعد تقنع بما تناله وإن كان كثيرا يتوالى كل يوم . بدأ الشك يساوره والقلق يخامر قلبه . فراجعها في لين وترفق . فما كان منها إلا أن ثارت به وغاضبته أياما ، وقد تبدل خلقها ، وزادتها «الزعامة» رعونة واستعلاء . فدفعته يطالب أمها «بمصرف» شحمي لها . وانتظرت عن بُعد . ثارت «سعادات هانم» - كما تخوّفت «ملك» - في وجه تابعها الأمين ، ورمته بالحماقة ، تذكره بأنّ النقود في يد البنات مفسدة . وأن... وأن... فتحمل ثورتها في استكانة ، حتى رضيت أن تخصص لابنتها مبلغا زهيدا بعد أيام من المحاورة والإلحاف في السؤال عن وجوه إنفاقه . كانت تجربة محرّجة لم تحاول «ملك»

تكرارها . وسلكت أيسر السبل . اندفعت تسلب أمها ما تستطيع .
امتدت يدها إلى « النقود الصغيرة » التي تتركها تحت وسادتها أو
فوق منضدتها أو في درجها . وتبذل حس الفتاة ومات ضميرها ،
حتى ارتضت أن تترك أمها تتهم الخدم بالخيانة ، وتمضى هي هاربة
إلى مدرستها والثورة في البيت أتون يتأجج .

وتتابع الحوادث بعد ذلك مسرعات . وانزلقت « ملك »
تهوى بتفكيرها وأفعالها نحو الحضيض . قطعة حجارة تندرج
مندفعة على جوانب جبل ، حتى ارتطمت بالقاع ، فتفتت محسورة
عندما وافقت بنات جماعتها اللاتي تفتق ذهنهن عن الخلاص من
حياة « الرق » للآل والمدرسة بالزواج من أحبائهن ...

نثرت « ملك » في مخيلتها صور من قابلتهم من الرجال ،
فوجدت أن أكثرهم قرباً إلى قلبها المتخبط هو مدرب « التنس »
فارح الطول ، عريض المنكبين ، ضامر الخصر . شعره منفوش في
إهمال سبي قلبها الغر . وفيه خشونة جذبتها تربطها إليه وتذكرها
بأبطال الروايات السينمائية... وفوق ذلك فهو مانحها قبلتها الأولى .
وهيئات أن تنساها ! إنها تذكر ذلك اليوم جيداً . لم يكن الرجل
ليجروا على الإقدام على فعلته لو لم تسع هي إليه في ملعبه ، الثاني في
طرف الحديقة القصي وتمضى قرابة الساعة في محاوره معه ومناوشة .

حاولت جاهدة خلالها أن تخرجه من تزمته وشعوره بالدينوية حتى يضع رشاده ويأخذها بين ذراعيه . كما قصّت عليها صديقاتها ما حدث لهن . فلما يئست منه ولم تنجح إلا في إثارة مشاعرها هي ، ارتمت عليه تتشبث بعنقه رافعة إليه وجهها ، زهرة ندية متفتحة ، فنظر الرجل إليها والدم يدوى في رأسه يتأملها : مَلَكًا رائع الجمال يستجدي ، ضلّ طريقه إلى الجنة فأخذ بيده في ذلك اليوم إلى الجحيم . وكان يوما ! .

فلما أثارت صديقاتها موضوع زواجهن طار خيالها إليه . فدبرت ما يلزمها من مال ، وفاتحته دون موارد في زواجهما . فتردد الرجل لحظة متخوفاً من المسؤولية ، ولكنه مالبث أن أذعن لرغبتها عن طيب خاطر أمام ادعائها أنها يتيمة الأبوين حرة التصرف في نفسها ، وأن « عمتها » التي تعيش معها لا إرادة لها إزاء إرادتها هي . فضغط ذراعها - بخشونته التي تعشقها - موافقا ، واجتذبا ذاهبًا بها .

تزوجت « ملك » . وتزوجت فتاتان أخريان من جماعتها : إحداهما بنى بها صبيّ كوّاء لامع الشعر منمقه ، يرفع يديه عن دراجته وهو يسابق بها الريح عبر الحارات والأزقة . والآخرى بنى بها تليذ ثانوى مدمن الرسوب ، يحفظ عن ظهر قلب أشعار

الغزل وعبارات الغرام . أما سائر الفتيات فقد أحجمن في آخر لحظة وهربن : كما أفلتت صاحبات الاقتراح أنفسهن - « فكرية » ، و « لواخط » و « سعدية » - بعد أن أوقعن من أوقعن وكبّلنهن بقيد متين .

أضحت « ملك » تمضي النهار مع زوجها ، وتنتظر « ريحان أغا » على باب المدرسة في الثالثة والنصف تماما - كعهدها - ليعود بها إلى البيت .

و ذات يوم اصطحبها « حنفي » لتزور آله في « المغربلين » ، فتعثرت ربيبة القصور مستندة إلى ذراعه ، والظلام دامس في وضوح النهار . تتجسس مواقع قدميها على درجات السلم الخشبي المتأكل الذي ين متوجعا كأنما يسترحم كي يخففا الوطء . وأخيرا وصلا إلى كوة دفعها زوجها داخلها ، فتوقفت الفتاة على عتبتها تتحشرج في حلقها شهقة ، وهي تشعر أنها خطت داخل بئر عفنة تنضح رطوبة . وأخذت عيناها تتعودان الحلكة الكثيفة شيئا فشيئا ، فرأت على ضوء ذبالة شاحبة تتراقص في إعياء امرأة غائرة الحدقة ، ضامرة الصدغ . تتعلق بها شردمة من أطفال مهزولين صفر السّحن . وعلى قطعة من حصير بال حطام رجل ملقى . يستبد

به سعال عنيف يمزقه يكاد يزهق روحه ، كلما سحبت أنفاسا من
« جوزة الحشيش » التى يحتضنها بذراعيه المعروقتين .

تسمّرت « ملك » على عتبة الـيـكـن الذى تقيم فيه أسرة
زوجها ، وقد ظنت بعقلها الظنون . فأمرّت كفها على جبينها كأنما
لنزيع الغشاوة التى تنسدل عليه ، أو لترفع الحجاب الذى يطمس
عينها ، ولكن هيهات ... انطبعت فى ذهنها صورة الحضيض
- بيؤسه وهوانه - مجسمة . فسرت فى كيانها كاه قشعريرة
كدبيب النمل بأرجله الخشنة تخدّرها وتدغدغ أعصابها . ولكنها
سرعان ما زابتها عندما أحاط « حنفى » كتفها بذراعه
- التى تعشق قوتها وخشونتها - يربتهما تارة ويمسح شعرها
تارة أخرى .

وكانت « ملك » قد جاءت لهم بهدايا متعدّدة على ألوان شتى
من طعام وملبس . فأكبت توارى صدمتها وتلهى بتوزيعها على
كل منهم : فما كادت تفعل حتى نسوا تهيبهم ، وتكالبوا
على اللحم والفاكهة والثياب ينهشونها من لفائفها ويتخاطفونها ،
غريبان مسعورة : وعلا صراخهم وضجيجهم وهم يتنازعون
ويخمش بعضهم بعضا . ثم أحاطوا بها وقد حشروا أشداقهم حتى
كادت تتمزّع ، وراحوا يتشدقون ويتمصصون ، وأقبلوا عليها

يَتَشَمُّونَهَا مَحْمُومِينَ عَلَيْهَا تَحْمِلُ مَعَهَا بَعْدَ شَيْئًا .

فَتَقَهَّقَتْ « مَلِك » زَائِغَةً عَيْنَهَا ، مَذْعُورَةً نَظَرَتَهَا ، تَسْتَنَجِدُ فِي صَمْتٍ بِزَوْجِهَا : فَفَقَّهَهُ « حَنَفِي » ، وَوَقَفَ أَمَامَهَا يَحْمِيهَا وَيَهْشِ عَنْهَا إِخْوَتَهُ . فَضَغَطَتْ ذِرَاعَهُ شَاكِرَةً : وَهَمَسَتْ تَغْصُ بِرَيْقِهَا :
« اُنْخَرِجْ - أَرْجُوكَ ! » .

فَخَرَجَ بِهَا : وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ هَمَسَ إِلَيْهَا بِدَوْرِهِ :
« أَلَيْسَ مَعَكَ بَعْضُ النُّقُودِ ؟ هُمْ فَقَرَاءُ مَسَاكِينٍ ، وَسَيَدْعُونَ
لَكَ بِالْخَيْرِ طَوِيلًا ! » .

فَدَفَعَتْ إِلَيْهِ بِحَقِيْبَةٍ يَدُهَا دُونَ أَنْ تَنْبَسَ بِلَفْظٍ ، لِيَلْتَقِطَهَا
مَلْهُوْفًا يَلْعَقُ شَفَتَيْهِ بِلِسَانٍ رَفِيعٍ ، حَرَبَاءَةً مَتَلِظَةً . وَارْتَعَشَتْ يَدُهُ
فِي تَشْوِيقٍ حِينَ دَسَهَا فِي الْحَقِيْبَةِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا قَابِضَةً عَلَى رِزْمَةٍ
مِنْ الْأَوْرَاقِ الْمَالِيَةِ مُخْتَلِفَةِ الْفَنَاتِ : فَأَخْفَى فِي جَيْبِهِ دَسًا
مَا انْتَقَاهُ ، وَأَعْطَى أَبَاهُ وَأُمَّهُ مَا اسْتَبَقَاهُ ؛ ثُمَّ سَحَبَ زَوْجَهُ وَخَرَجَا .

وَزَادَتْ الْأَيَّامُ « مَلِك » تَعَلُّقًا بِ« حَنَفِي » وَشَغْفًا ، كَمَا زَادَتْهَا
جَرَاءَةٌ وَتَهَوُّرًا . فَتَوَالَى غِيَابُهَا عَنْ دُرُوسِهَا ، وَطَالَ أَشْهُرُهَا مُتَعَاقِبَاتٍ
عَنِ الْمَدْرَسَةِ . مَصْطَحِبَةٌ زَوْجَهَا مَرْنُ التَّنَسُّ . فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ طُرِدَ
مِنْ عَمَلِهِ وَشَرَّدَ . فَلَمْ يَأْبِهِ بِذَلِكَ وَلَا ابْتِئَاسَ . وَقَدْ تَكَفَّلَتْ بِهِ

زوجه . فكثرت الضغوط عايتها في طاب المال . وكثرت - تبعاً لذلك - سرقاتها من البيت .

ومرّت الأيام ...

ثم كانت الطائفة الكبرى . أرسلت إدارة المدرسة إلى أمها التقرير الشهري عن سلوك ابنتها ومدى مواظبتها وتقدمها في علومها . وكان صك عار حمت «مالك» - وهي تتلوه بشفاة مرتعشة - للشيطان معونته ، إذ أخضع لها قلب خادم أجزات رشوته ، فحمل إليها المظروف قبل أن يصل إلى يد أمها . فزقته بتشف وغيظ قطعاً صغيرة حرقتها بنفسها في الموقد الحجري في مطهى البيت النائي . وتنفست الصعداء وهي تنفض يديها بما يكون قد علق بهما من تراب . وراحت تنصيد بعد ذلك كل كتاب يرد من المدرسة وتبيده .

ومرّت الأيام ..

وحدث أن وصل التقرير المدرسى الشهري في غير ميعاده . حمله أحد السعاة توا إلى البيت . وكان الوقت ضحى والخدم منهمكين في أعمالهم ، والحديقة خالية إلا من «الهائم الكبيرة» ، جالسة تصطلى في الدفء الذهبى ، وترشف قهوة الصباح بتلذذ متمهلة . فتقدم الساعى منها وحياتها وأعطائها المظروف . فلما وقفت على لب

الرسالة حتى هبت ملدوغة تضرب كفًا بكف ، تنوشها الحيرة
وتذهب بها الظنون كل مذهب . أرغت وأزبدت . سبت ولعنت
آباء الخدم وأجدادهم وقد أقبلوا على صياحها مهرولين ، حتى
الساعى المسكين لم يسلم من بعض الرذاذ . وظلت يومها كله نائرة
كأنها نمره متحفزة ، تأسم الهواء وتركل الأرض . ورفضت أن
تذوق طعاما . حتى إذا عادت « ملك » - يتبعها « ريحان أغا » حاملا
حقيبة كتبها - ألقت بنفسها عليها تتشبث بشعرها تطرحها أرضا .
عفرت بوجهها الأديم ولوت ضفيريتهما الحريريتين حول رسغها ،
ثم انتضت حذاءها وهوت به على كتفى الفتاة وظهرها تلهبها
ضربًا مبرحًا .

فرفعت « ملك » ذراعيها تذود بهما عن رأسها الضربات . ثم
تخاذلت قواها ، وبردت أطرافها ، ودارت الأرض بها ، وغابت
عن الوجود . وانبثق من ثغرها خيط رفيع من الدم القانى ، وسال
على صدغها متدحرجا على عنقها ، ثم انحدر على صدرها يلطخ
مرياتها الناصعة .

فانزعج الخدم ، وهرعت زنجية منهم سمحة ضخمة الجثة ،
تحيط سيدتها الكبيرة بذراعيها القويتين فى حزم ، وتجذبها بعيدا
عن الفتاة ، على حين انحنى « ريحان أغا » على ربيدته محمما . فأثار

منظره «سعادات هانم» حتى استدرات نحوه تصب عليه جام
غضبها، وترميه بالغفلة، وتصمه بالعتة والخيال .
وطال إغماء «ملك» . نضحوا وجهها بالماء، وفركوا كفها
وباطن قدميها، ودسوا تحت أنفها قارورة «النوشادر» . دون طائل .
فهزول «ريحان أغا» وجاء بطبيب على عجل . فألقى نظرة شاملة
على العليلة، وعدّ نبضها وفحص رئتيها وجنبهها . ثم اعتدل
يخلع منظاره :

«سليمة بإذن الله . دعوها مستريحة . لقد تلقت صدمة عصبية
أكثر منها جسدية . ولكن ربنا ستر ... الجنين بخير !» .
فكأنما وقعت الواقعة ، أو أخذت القوم الصاعقة . شلت
الاجساد ، وتحجرت الحركات ، وفغرت الأفواه ... ثم
صرخت «سعادات هانم» ملتاعة صرخة مدوية ، وهجمت على
الطبيب تغرز أظفارها في ذراعه وتهزه هزاً ، وعيناها رجراجتان ،
كحبتى زئبق ، تستكشفان خلجات وجه الطبيب :

«ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ أعد على سمعى كلماتك ! لم أفقه
قولك ، ولا استوعبت معناه ! بربك أرح بالي !» .
فأرتج على الطبيب الغافل ، وفاته استنتاج الحقيقة وهو يربت
كنف «سعادات هانم» مشجعاً ، ويقول بتؤدة :

« اطمئني يا هانم - اطمئني . قسا إن السيدة الصغيرة بخير ،
ولا داعي هناك لكل هذا الانزعاج . كما أن الجنين لم يصب بأذى
أذى ، وهو يتحرك في أحشائها بأمان ... »

فغاض الدم في وجه «سعادات هانم» وتهاالكت في صمت
على مقعد تتعلق بذراعيه . وهي تسأل بصوت هادئ أبعد خطرا
من عتو العاصفة ، تلونه رقة أمضى من نعومة السم :
« والجنين - كم عمره ؟ » .

— « أربعة أشهر يا هانم . ربنا يتمم بخير ! » .
ولملم الطيب أشياءه وهو يتسم راضيا عن نفسه الرضا كله ،
وأصلح من وضع طربوشه ، ودس الجنين اللذين أعطيا له في
حافظته ، وقرأ عليهم السلام ، ومضى ... وانفجر الكون ...
ولولت الخادمت يتمايلن أسي ، واطمن الوجوه ،
وشققن الجيوب .

وجلست «سعادات هانم» مكانها ترقبهن بنظرة جامدة كأنما
نحتت من صخر . فلما التففن حولها ينهضنها مواسيات لم تفه
بحرف . بل هوت بينهما سلاء .

ومضت أيام ثلاثة . قطعة جحيم ، البيت تسوده كآبة ولوعة ،

والكل يشعر بالعار ياطخه ويتعلق بأذياله . وانزوت « ملك » منكسا
رأسها مقروحة عيناها في ركن من حجرة أمها ، ذليلة مهيبضة الجناح .
وانشقت الأرض عن أقارب وأهل كثيرين ازدحم بهم
القصر على رحبه ، يترقبون الأحداث ، وقد بلغهم أن « سعادات
هانم » تتردد بين البقاء والفناء .

وحلت ساعة ، فتحت المريضة عيناها لأول مرة بجهد ، ووجهها
يقطر شحوبا ، ويتفصد عرقا غزيرا ، ودارت بعصرها في السّحن
المنحنية عليها : من طيبب قلق ، ومحام متسائل ، وجارة مشفقة ،
إلى خادمة ماهوفة ، وابن عم آمل ، وابن بنت خالة طامع !
ثم لمحت « ملك » ...

فهبت منحاملة على نفسها تشفق وتضرب بذراعها الهواء ،
غريقا يقاتل متخططا . وججحات عيناها ، وتحشرجت أنفاسها ،
وهي تصبح مجنونة :

« أخرجوها من هنا - اطردها ! الكلبة . الفاجرة !
اطردها ! اطردها ! اغربي عن وجهي ! اغربي ! » .

فأحاط الجمع بالآثم يهدّثون من روعها ، ووخزها طيب
بمخدر ، فانتزعت ذراعها منه قسرا ، ولطمت السلاح فألقته
أرضا ، واعتدلت في جاستها ، تحترق جمرتان فوق عظمتي

صدغها . ثم أشارت إلى محامها أن اقترب ، وقالت بصوت
جهورى لا يشوبه وهن :

« أعرنى أذنك هنبه وكن واعيا قولى . أنا الآن - كما يشهد
الاطباء - فى تمام قواى العقلية . فاسمعونى جميعا : لقد جاءت
وحيدتى « ملك » شينا إمرا ... غافلتنى وحات سفاحا ! ..
وكأنما طعننها كلماتها ، فقد هوت بجمع كفيها تضغط قلبها ،
ثم استطردت ودمعها يسفح :

« أشهد الله أنى بريئة منها ! » وكزرتها ثلاثا : « بريئة منها براءة
الذئب من دم ابن يعقوب . لعنة الله على من يفترى على منكم لفظا
لم أقله ! لعنة الله على من يغير وصيتى من بعد مماتى ! »
واستكبت محامها ما استكبت ، وتحاملت تعض شفتيها
الزرقاوين ، حتى وقعت بخط واضح .. وفجأة انهارت حطاما .
وسكنت إلى الأبد .

جرت « ملك » قدميها جرا ، ووجهتها « المغربلين » تمشى بعض
الوقت ، وترتمى حيناً على الطوار تلتقط أنفاسها المضطربة ، وارتكبت
إلى جدار مرة ، فطرق سمعها جرس يجلجل . فلما اعتدلت تتأمل
البناء الذى تستظل به نذت عنها شهقة خنقتها ، فتحشرجت فى حلقها ،
وانهمرت دموعها ، وما لبثت أن هرولت تفر ، متخبطة تنعثر ،

تنأى عن مدرستها قبل أن تلجها تلميذة أو معلمة أو خادم .
فلما لاح لها بيت زوجها بين أقرانه قبور الأحياء ، انتعش
فؤادها المثقل شيئا ، وقد أضحى السكن المظلم العفن الذى نفرت
منه قبلا منتهى أملها وشمس حياتها . فأكبت على السلم المتأكل
الموصل إليه ترحف صاعدة . وقد بلغ منها التعب مبلغه . نفرت
بأبه بأنامل مثالجة ترتعش . فما فتع لها « حنفى » حتى ارتمت على
صدره تتعلق بعنقه منتحبة تنشج ، وتسكب فى أذنيه قصة
ذها وتشريدها .

مرّت دقائق وهو يستمع فى صمت هاها منه خلالها جمود ،
ثم نفور ، ثم فظاظة حين دفعها عنه بقسوة صاخا :
« مالى ولكل هذه البلايا ؟ ما شأنى بك حتى تلقى جثتك على -
صخرة على صدرى ؟ » .

فصرخت ملسوعة ، وتشبثت مستميتة بأطراف جلبابه .
وشقت صرخاتها جنبات البيت الواسع المهتم مترددة أصداؤها .
روح ضالة تستنجد ، وقد لذعتها السنة السعير تهب عليها لائحة .
فتجمع الجيران . أناس ضامرون كأنما من الأجداث هم
لساعتهم ينسلون ، طبع إدمان المخدرات على سحنهم الكالحة صبغة
لا تفوت العين . وقفوا يرقبون المشاجرة الحارة ببرود ، ثم

تقدّمت شوهاء منهم مكتّبة إلى « ملك » ، ورفعت كفا ذابلة
مسوّدة الأظافر إلى كتفها تنحّيا عن « حنفي » قائلة :

« دعيه يا امرأة ، ربنا يحنّ عليك . هو مسكّين لا يجد
ما يتبلّغ به . الرجال كثير ! » .

وتدخل ذو صوت أجش : « أنتِ حتّما تعرفين أبا جنينك !
حرام التجسّى على عباد الله ! اذهبي إليه بحملك ! » .
وقال ثالث :

« حنفي فقير لن تستخلصي أو تفيدي منه شيئا ! دعيه لآله ! » .
وقال رابع : « لن تعدى فخلا سواه ... والفحول كثير ! » .
وتحمس « حنفي » متشجعا ، فأزاحها عنه بغلظة وهو يقول :
« ما هذه الرزية التي ارتمت عليّ ؟ أغيشوني يا مانس من
هذه المصيبة ! هي تدعى أنى زوجها ! زوجها ... أسمعون ؟
ها ، ها ، ها ! ولماذا لم أدعكم إلى زفاني وأنتم أحبائي وعشيرتي ؟
اسألوها بربكم ... اسألوها متى تزوّجتها ؟ وأين ورقة الزواج ؟
أف لهؤلاء الساقطات ! » .

وولى البائسة دبره . وهمّ بدخول الكنّ الذي بخل به عليها
يؤويها ليلتها ، فهجمت عليه تنشب أظفارها تغرزها في ثنيات
عنقه وتجذبه ليخرج إليها ، فاستدار نحوها ، والتحم كلاهما في قتال

عنيف أطبق هو خلاله على عنقها المرمى بأصابه الغلاظ
يضغطه فيكاد يزهرق روحها . وهو يصبح ساخرا متشفيا كأنما
هناك بينهما عداوة منذ بدء الخليقة :

« لم يكن المأذون سوى صديق لي كواء ارتدى ثياب أبيه
المقرئ ... أتسمعين ؟ فلم يكن ما بيننا عهد أو ميثاق . أتسمعين ؟
أكنت مجنونا حتى أوثق نفسي إليك عمرى ؟ لا شأن لي بالذي
تحمليه بين أضلعك وتحاولين إلصاقه بأب - بي ، وأنا براء منك !
اغربي ! اغربي عن وجهي ! » .

فدوى الدم يهدر في دماغ « ملك » نابضا في أذنيها يقرع
طبول موت . وغشى عينيها يصبغ الدنيا بلون الجريمة . فغام
بصرها ، وتراقصت المرثيات مهووسة متداخلة . واضطرب تنفسها
كأنما تشهق تحت ماء . حتى إذا بلغت منها الروح الحلقوم جمعت
شئات قواها وركلت الشيطان الجاثم فوق صدرها يضغط عنقها
ركلة ألقته عنها على ظهره ليرتطم - والمكان ضيق - بحاجز السلم
المتأكل ، فهوى به من شاهق ، وهو يصرخ صرخة نكراء تقشعر
من هولها الأجنة في الأرحام .

• • •

لفظ السجن « ملك » بعد عامين ، وقد نصب من جسدها



لفظ السجن « ملك » بعد عامين ... وعلى ذراعين معروقين سفعتهما الشمس حلت ابنها ...

رحيقه ، وخبا من روحها شعاعه . شحب محيّاها ، وانطفأت عيناها
واكتسبت قسماتها جمودا من حياة القسوة والخشونة ، قناعا
لا يستشف المرء خلاله أفكارها ، ولا يصيب في تلمسه مشاعرهما .
وعلى ذراعين معروقتين سفعتهما الشمس المحرقة ، حملت ابنها -
كائنا كبير الرأس مثقله لا يكاد يرفعه عن كتفها المضناة ، يحيط
عنقها الأعجف بعودين يبيسين . على حين تقوّست ساقاه وتدلّتا .
فتحوا لها الباب الحديدى الرهيب ، نخرجت في صمت -
في استسلام يشوبه حزن ، كأنما يطردونها من أمن إلى غائلة .
من نعيم إلى أرض يباب . خرجت لا تعرف لها سبيلا
ولا مسلكا . أين المفر ؟ أين المفر ؟

فناداها من خلفها أن تمهل صوت متهدج تتطاحن فيه دموع
وضحكات . تسمرت مكانها مطأطئة الرأس ، حتى إذا ضغطت
كتفها تجذبها كف فاحمة متكسرة أظفارها تعلوها القذارة ،
أكبت لهنّ 'قبلها وتمرغ وجهها بها ، وهى تتنهد ، ثم تتشممها
وتتحسسها بخدّها .

قال «ريحان أغا ، وهو ينشج :

« الحمد لله على السلامة يا سيدتى ، ملك هانم ، ... الحمد لله

على السلامة ! كنت أعدّ الثوانى عدا ! » .

وحنى عليها يحمل عنها المِسْحَ التمس . ثم رفع هامته وتأخر
عنها خطوة كعهده ، وأشار في أدب وخشوع :

« من هنا يا هانم . إلى حجرة متواضعة في بدروم أطمع أن تشرفيها ! »
وأوصلها إلى الحجرة وتركها تتعرف أركان المكان ومحتوياته
القليلة ، وحمل ققمه النحاسي بعد أن ملأه جرات حمرا تنوهج ،
عيون جانّ برافة ، وهروول إلى مكانه المختار أمام ضريح « السيدة
زينب » مندسا في زمرة « الأتباع » و « أصحاب العشم » من شحاذين
ومجذوبات ومتدروشين . لا تكاد سيارة تقف حتى يهرع إليها
يفتح بابها وينحنى نصفين - بعظمة الأيام السالفة والقصور
الشاحخة - يرقى ببخوره الفواح زوار « الطاهرة » ويتلقى - بعظمة
أيضا - ماتجود به نفوسهم من قروش وأرغفة محشوة بالفول النبات .
وفي كل جنازة تجده بين حملة القماقم - لا تخطئه العين : عبدا
فارعا في لون الأبنوس ونفاسته ، طودا لا تقله الأعاصير
والغوائل ، عليه حلة رسمية سوداء قد شحّب لونها ورق نسيجها ،
يسير مرفوع الرأس ، أنفه شاحّ وحداؤه فاغر . طابعة الجذ
والاهتمام بعمله ، ينشق فيه عن أسنانه الناصعة فجأة بين حين
وحين ببسمة هائلة حاملة ، هي صدى لخلجة الفرح في صدره ،
وقد ضمن لقمة اليوم له ملك هانم ، ... !



... ترقص حافية ، أنامل قدميها الدقيقة أطراف ورد ...

رنين الكأس

كانت في حيرتها وتلفتها ظبية غريرة - ظبية فزت من جانب
أمها تجرب حظها أول مرة في معترك الغاب . لها وداعة الظبية ،
وجيدها الأهيف ، وساقاها الدقيقتان ، وعيناها النجلوان ، تنبعث
منهما تلك النظرة الزائغة ، وهي تتمايل مع النغم متثنية في رقصتها ،
دائرة بيصرها بين السكارى الصاخبين . وكانت ترتدى حلة للرقص
بالية تناثرت الفتوق في مواضع منها ، كأنما مزقت الغصون
والأشواك إهاب الغزال الشارد .

وقفتُ مبهورة الأنفاس أتأملها . ولو قلت إنها جميلة لظلمتها ،
ولم أبلغ من وصفها ما يجب لها . كانت هي الفتنة اليقظى والسحر
المشرق . أفتتتها تسبي ، وخطوتها تملك على المرء شغاف قلبه .
ترقص حافية ، أنامل قدميها الدقيقة أطراف ورد ، لا تكاد
لفرط خفتها تلمس منصة المسرح العتيق الذى يئن ويتوجع عاشقا
برَّحَ به الوجد .

أثارت رؤيتها مشاعرى - أنا العجوز التى فرغت من الدنيا .

ونفضت يديها منها . فما ظنك بالرجال والشبان الذين يزدحم بهم
ذلك الملهى الرخيص ، حيث اعتدت أن أزحف إلى بابه في
منتصف كل ليلة ، أستجدي رواده .

وكنت وحفنة من سابلة الليل - بائع اللوز والفول السوداني
المقشور ، وبائع عقود الفل . وفي وقتي وفتاة من لاقطى أعقاب
الفائف - ننحشر في نافذة جانبية وطيفة متطاولين بأعناقنا لنستمع
بما يدور في دخيلة الملهى .

تهلل رفقاءى للصبية الراقصة ، وكالوا لها تحايا المديح والإعجاب .
وتمصص بائع السوداني شفثيه حسرة على فقره الذى يسكته على
مضض ، ويربطه بزوجه « نبوية » التى يحاكي وجهها المستطيل
الآخبر سحنة البغل الذى يجزّ عربة التنظيم . وبرقت عينا المراهق
- لاقط أعقاب الفائف - وهما متشبثتان بالجسد الغض المتلوى
أمامه ، ونزع ذراعاه ذاهلا ، من حول عنق صاحبه ذات الشعر
المنفوش والمنديل الكالح . فعضت الطفلة المرأة شفثها غيرة
وكدا ، وصاحت :

« البسوتى ثوبها أصبح باهرة الطلعة ، وأرقص خيرا
بما ترقص ! » .

فصفع الغلام قفازها صفعه كادت تطرحها أرضا ، وقال بلهجة

السيد صاحب الحق :

« اخرسى ... وامشى ورائى ! »

ومضى فى سبيله تتبعه دامعة العين - عبدة رقيقة .

فقهقه رفيقائى الآخران ، واستدارا يتابعان النظر إلى ما يدور

على المسرح من ألوان الممتع .

أما أنا فلم تستهونى الغادة برقصها . إذ كان من الواضح عندى

أنها لا تعرف منه غير اسمه . ولم يخطئ حكمى عليها وأنا الراقصة

العتيقة ريبة المهنة منذ تفتحت عينائى على دنياى التاعسة .

كانت هذه الراقصة جديدة على الحى لم تظهر قبل الليلة . وقد

استنتجت أنها عذراء . فضحتها نظرتها الجزعة - حملاً وسط قطع

من ذئاب . رثيت لها . فقد وقفت وقفها يوما ، وجزعت

جزعها . ثم ثم تبلد حسى ، فلم أعد أجزع ، ولم أعد

أشفق ... ولقد صدق حدسى ، إذ سمعت من الساقى أن « المدام ،

صاحبة الملهى تلفقتها عند موقف « الترام ، وقد عثرت عليها

ترتكن إلى عمود النور وتبكى من حيرة ، ويدها فى يد أختها

الطفلة . فلما سألتها عن قصتها روتها لها - القصة الخالدة العتيدة :

زوجة الأب ، القسوة والحرمان ، أحلام الحرية ، الفرار ...

ثم الطريق .

فطابت «المدام» من خاطرها ، وربت شعر أختها ، واشترت
لها سميداً وجبناً ، ثم جعلت تسوقها شاة إلى ماهاها ، وهي تعدّها
بالجاء والمال والحرية كاملة غير منقوصة .

وكان أول ما فعلت «المدام» ، لكي تضمن بقاء الفتاة في
حوزتها ، أن عقدت لها على أحد الأشرار المتبطلين الذين يحومون
حول الملهى ، يستنزفون أموال صاحبه بحجة حراستها : فحل
أسود ، كث الحاجبين ، غليظ الشفتين ، ذو أنف أفطس ،
يطلق عليه الناس اسم «الحلو» . فما ختم بإصبعه وثيقة الزواج
ودسها في طيات جلبابه الحريري القدر . حتى احمرت مقلتاها وهو
يتفرس في الفتاة يكاد يلتمها ، وريقه يتحلب ، وأصرّ على
أن يجرّ زوجه إلى الكِنّ الذى يقيم فيه فوق سطح أحد المنازل .
فخلصتها «المدام» من قبضته برفق وكياسة ، وهي تخزّه مداعبة
في جنبيه هامسة في أذنه :

« لا تكن أبله ! ألا تبغى من ورائها كسبا ؟ إذن دعها .
فقيمتها الليلة غير قيمتها غدا ! الليلة تساوى ثقالها ذهباً ! دعها
لـ «مدحت باشا» أو «سوسو بك» أو العمدة ذى القفا العريض
والشارب المفتول ، يملأ كفيك مالا ... ! » .

فتركها «الحلو» على كرهه ، وقد تغلبت شهوة المال

على غرائزه .

ومن هنا كانت نظرة الفتاة الخزعة ، ولفتها المستجدة التي تبحث عن مفر . فما انتهت القطعة الموسيقية التي تصاحب رقصتها حتى استدارت بكيانها كله نحو العازفين لهفي ، مستعطفة . كأنما تتوسل إليهم أن يواصلوا العزف حتى تعود هي إلى الرقص ولا تغيب عن المسرح والأضواء وراء الأستار المسدولة ، حيث ينتظرها « الحلو » وصاحبة الملهى ليقوداها إلى قدرها .

ودَوَّت القاعة بتصفيق حاد ، وتهلل صاحب معربد ، والقوم يطلبون تكرار العرض . فخيَّل إلى أن الفتاة تنفست الصعداء ، وأقبلت لاهثة تعيد حركاتها الهلوانية الساذجة التي تستدر العطف ، دون أن تلتقط أنفاسها . فتصبب العرق غزيرا بين كتفها وعلى صدرها ، ونضحت به جهتها . حتى إذا فرغت من أداء رقصتها انسدت الأستار بغثة تخفيها وراءها . ثم انقشعت عن فرقة كاملة من الراقصات ينشدن ويتمايلن مع النغمات .

فرجعتُ عن النافذة التي أنظر من خلالها ، وجلست على الأرض مستندة إلى جدار الملهى ، وأنا أضرب كفا بكف وألعن حياة الليل القاسية . القصة هي القصة أبدا . بكر غريرة طُمُوح ، أو خاطئة صغيرة بائسة . رقصة أو أغنية تعلن بها عن

نفسها كأنما تدل عليها . فاكترأ . فتمرغ في الوحل ، فحياة ظلام ،
فدبول عاجل وانطفاء بهاء . فطرد وتشريد ، فعودة إلى الطريق :
حطام يستجدى الناس - مثلى .

ومرّ في هذه اللحظة بائع خيار . فمدت يدي إليه . وناديت
دون وعى بحكم العادة :

« إحسان لله الا يحوجك الله ا » .

فقدف إلى الرجل الكريم بثلاث خيارات : رحت ألوك
إحداها وأديرها هنا وهناك في فمي الأدرد هائلة سعيدة . وأنا
أستشعر استمراء لطعمها العذب ، وأأكلت الثانية . أمّا الثالثة
فأعطيتها لبائع الفول السوداني لقاء حبات من فوله جعلت أقذف
بواحدة منها تلو الأخرى في فمي ، وأدغدغها جهدى ، وعقلي
يسرح مع الأفكار ... ترى ، ماذا يفعلان بها الآن : « الحلوى ،
و « المدام » ؟ يصبغان وجهها بالمساحيق لاشك ، ويعقضان
شعرها ، ويعطرانها ، ويهندمانها ، كأنها عروس ليلة الجلوة ، قبل
أن يقدمها صحنًا شهيًا لشارٍ مليء الجيب .

وفتح باب الملهى الخارجى بعنف على مصراعيه ، ووقف
البواب ينحنى نصفين ، زلفى ، ويفسح الطريق الخالى أمام سكير
فاخر الثياب خرج يترنح ، تحيط به شرذمة من الصحاب ، حالهم

ليست خيرا من حاله . وتتبعهم « المدام » تدفع الفتاة الجديدة أمامها ، تخرها خفية بين حين وحين تحضها على الابتسام ، على حين تسخو هي بابتساماتها على الجميع متملقة في نعومة .

ويمم الوجيه المخمور وجهه نحو سيارة فارهة كانت تقف إلى جانب من الطريق ، فمآه سائقها حتى أسرع بها إليه . فتقدم يصعد وهو يتخبط يمينا وشمالا ، تكاد تخذله قدماه ، حتى إذا وطئ سلم السيارة استند إلى بابها ، وراح يقيء وبقى حتى أفرغ ما في جوده بصوت كريبه لحتنى منه غثيان . فاختلست نظرة إلى الشهيدة المسوقة إلى المذبح ، فطالغنى في محياها المرمرى البديع هلع قاتل مقرون باشمزاز مميت .

وكأنما عز على « البك » ضياع الخمر التى تعب فى احتسائها سدى . فمسح فم بكم سترته ، ودس يده المحلاة بالخواتم إلى صداره ، وأخرج رزمة من الأوراق المسالية لم يعدها ، بل قذف بها فى وجه السائق وهو يصيح :
« إلى بأفخر زجاجات الشمبانيا ! » .

ودلف إلى السيارة ، واضطجع على فرشها الوثير ، راضيا عن نفسه الرضاء كله . وانحشرت معه بطانته .

فهبّ بائع الفل يحوم حول السيارة يدفع بعقوده داخلها

من النافذة ، ويقول غمازا بعينه :

« الفل للفل يا بك ! يا أبيض من الياسمين يا ... يا جميل ! » .

فقهقه « البك » مسرورا ، واشترى منه كل ما عرضه عليه .
فعاد البائع إلى زمريته متهاللا فرحان يعدّ نقوده .

فزحفت أنا بدوري إلى « البك » أحجل ، ومددت يدي
المعروقة إليه ، قائلة بصوت واهن :

« أعطني بما أعطاك الله ياسعادة الباشا ! ... زادك الله من نعمائه ! ..
وكأنما أغراه صوتي الأثوى الخافت ، فاعتدل جهده جالسا ،
وستد إلى وجهي مصباحه الكهربى الصغير ، وأضاءه فجأة . فما
رأى تتخنى الشوهاء التى أكل عليها الدهر وشرب . حتى تراجع
متقرزا يغتمغ :
« أعوذ بالله ! اغربى يا بومة النحس ! أتطمعين بعد فى
هذه الدنيا ؟ » .

فتراجعت عمية من النور القوى المباغت ، وارتطم عكازي
بالطوار ، وكدت أهوى لولا أن أسندنى السائق الذى عاد حينئذ
يحتضن ما اشتراه لسيدته من زجاجات الشراب . فضجّ من فى
السيارة بضحك أهوج صاخب ، يستحسنون ما نطق به سيدهم من
حديث ، كأنما هو غاية خفة الدم ورقة الظرف . فقامت ألملم نفسي ،

وأحك ظهري ، علّ ذلك يسكن من الألم النابض فيه سيوفاً مسنونة .
وحنا على السائق يعاونني على النهوض ، ودسّ قرشاً في يدي ،
وهو يسر في أذني :

« هذا لك من عندي . دوري يا أمّاه إلى الجهة الأخرى من
السيارة حيث تجلس السيدة الصغيرة . إنها تريدك ! » .
ففعلتُ ما أمرني به في تسالٍ ، حتى إذا رأت الفتاة وجهي
وراء زجاج السيارة فتحتُ النافذة التي بجانبها ، واختطفت ورقة
مالية من حجر الوجيه دفعتها بسرعة إلى ، كأنما تخشى أن يأخذها
ثانية . أما هو ففقهه مشروحا صدره لما صنعت ، وقد سره
خروجها مما كان يغشاها من انقباض وانزواء .
وهمست الفتاة إلى بكلماتها :

« أختي الطفلة داخل الماهي ... أنقذها بربك ! » .
وشعرت بأناملها مثلجة ، وأنا أتناول منها النقود ، فهنا قلبي
إليها شفقة ، وقلت بحرارة صادقة :

« من عينيّ هذه وتلك ! قسمي لأنقذنها بأي طريقة ! » .
فلما مال « البك » نحوها يجذبها إليه ، ويتحسس ذراعها ،
وقد تشجع يحدوه أمل ، تقهقرتُ أنا مستخفية في الظلام ، على
حين وثبتت السيارة بحملها تطري الأرض طيا ...

ذهبت من فوري إلى باب خلفي لللهي نعرفه جميعا ، وتسلت
داخلة. لذت بالظلال أتجنب الردهات المنيرة ، وأسترق السمع ملتصقة
بالحوائط والجدران ، حتى وصلت إلى حجرة الراقصات ، وأنا في
صوتهن منشدات من المسرح. فعلت أنهن يقمن باستعراض لمجموعتهن.
وكانت الحجرة مضاءة لا أثر لنظام فيها - ثياب مبعثرة على
كل شائكة ولون ، وعلب للساحيق والأصباغ منشورة
على الأرض في الأركان وعلى المقاعد . وعلى كومة من ملابس
التشيل وجدتها - الطفلة - نائمة . ابنة خمس سنوات أو ست .
الطهارة في بُورَة ١

لم أضع دقيقة . اختطفها اختطافا ، وأنا أحمد الله على صغر
سها وخفة وزنها . ورحت أعرج بها وأحجل تعوقى قدمي
المشولة ، حتى وصلت إلى الباب الخارجى والتصفيق يدوى عاليا
في أرجاء المكان مؤذنا بانتهاء العرض . فانزويت مسرعة بالملك
المستكين في أحضان وراء مصراع الباب ، وجموع الراقصات
صاحبات ضاحكات يهروان أمامنا إلى حجرتهم .

فاستيقظت الطفلة تفرك عينيها وتديرهما حولها تتراقص شفها
السفلى الناتئة منذرة بخطر انفجارها باكية مستوحشة ، فلم أنتظر
حتى يمتضح الأمر ، وهويت بكفى على فخها أسده ، وتابعت

الهرب . فلما تركنا الملهى وراءنا ، أنزلتها من فوق كتنى ، وربت
شعرها أونسا وأصلح من شأنها ، فسألتنى بصوت باك :
« من أنت ؟ وأين « أبلا اعتدال ، أختى ؟ » .

فواريت سحنى بخمارى ، لىكى لا ترعبها ، وعالجت خشونة
صوتى ، قبل أن أجيبها وأنا أبسم متوددة فى ظلام الشارع :
« لا تخشى شيئا يا حبيبتى . أنا صديقة أختك أرسلتنى لأعبدك
إلى بيت أبيك . أستطيعين إرشادى إليه يا ابنتى حتى آخذك إليه ؟ » .
فصفقت يديها الصغيرتين ، وتهللت قائلة :

« أحقا نعود ؟ وافرحتاه غدا حفلة « سبوع » أخى الجديد ! لقد
انتظرت ذلك اليوم ، وتمنيت حلوله ، كى أحمل شمعة مضاءة ، وأغنى
مع الأطفال وآكل بندقا ولوزا . ولكن « أبلا اعتدال » حملتنى فجر
أمس ، وخرجت بى والأهل نيام وقالت لى إننا سنزور قبر أمنا ! » .
فاستمعت إليها وحلقى يتقلص ، وعيناي تَدَيَّان .

وكزرت عليها سؤالى عن بيت أبيها ، فقالت بحماسة :
« طبعا أعرفه ... إذا أنت أخذتنى حتى دكان « عم محمد الجنائنى »
البدال فى حارة « البركة الناصرية ! » .

صحبتهُ إلى هناك ، وما وجدتُ الطفلة نفسها فى الحارة الحبيبة
المألوفة لديها ، حتى خلصت يدها عنوة من يدى ، وركضت

تسابق الريح . فوقفتُ ساكنة أنظر إلى خيالها الصغير يغيب
داخل منزل عتيق ، وقلت للهواء عله يبلغها قولى يوما :
« اركضى ... اركضى وَسَعَكَ يا ابنتى ! اهربنى ... فزى إلى بيت
أبيك ! لوذى بأحضانه ، وادقنى وجهك على ركبتيه ، واحتمنى
بذراعيه من العالم الصاخب . وإذا لطمتك زوجته على خدك
الأيمن فأديرى لها خدك الأيسر باسمه راضية - أكرم لك هذا
يا صغيرتى ! إى والله أكرم لك يا بنيتى ! » .

• • •

وألهتنى الدنيا أياما معدودات ، رجعت بعدها إلى مكاني المختار
بجوار باب ملهى « المدام » . وما كدت ألقى عكازى إلى جانبي ،
وأسند جسدى المتعب إلى الطوار تحت النافذة السفلى العتيدة ، حتى
طرق سمعى رنين كأس ، وضحكة ماجنة مخمورة ، خيل إلى أنى
أعرف صاحبها ... فتحاملت جهدى حتى حافة النافذة ، وأطللت
منها ... ليواجهنى ظهر عارٍ ينحسر عنه ثوب حريرى فى لون جهنم ،
ظهر امرأة شابة تجالس زمرة من الرجال ، يتكالبون على خطبة
ودها ، وهى تسوسهم بخبرة ومهارة وسعة حيلة . فجمدت مكاني
منتظرة ، حتى إذا التفتت على غير قصد وراءها ضاحكة ، تراجعت
جاحظة العينين . لاهثة . فلم تكن إلا « أبلا اعتدال ! » .

العفو الكبير

لو أننى سمعت هذه القصة من غير صاحبها ، لنسبتها إلى خيال
خشب طلق يرتع على هواه ، ينسج ويصور .

كنت - أنا وجمع من رفيقائى - فى رحلة مدرسية إلى الصعيد
الأعلى . فخططنا رحالنا لنبيت ليلتنا ... وكنا على قارب بخارى ...
عند إحدى القرى المجهولة المتناثرة بين « أدفو ، و « أسوان » .
وقهز الملاحون طوالا خفافا إلى الشاطئ يثبتون الأوتاد ليشدوا
إليها حبال قاربنا . وجاءتنا أغنياهم يرددونها من أعماقهم ، فتنتفض
كلماتها حية نابضة . وهددتنا الأهواج لحظات قبل أن نستقر فى
مكاننا المختار .

ولبلى الصعيد شاعرية لها سحر يهز الوجدان ، ويمس شغاف
الروح . فما بالك بحفنة من المراهقات تناوشها آمال ، وتشاغلها
أخيلة وردية من رؤى وأحلام ؟ .

تسمرنا مكاننا على سطح القارب ، بشغور مفترة ، تنظر إلى
الآفاق البعيد ، وعيوننا ساهمة ، حاملة ، وآذاننا تلتقط كل نغم ،

وتكبت على كل لفظ تعيه وتحفظه . واصطبغت السماء أمامنا بلون
بنفسجي تشع منه حمرة دافئة . والشمس تحنى هامتها منحدرة نحو
النهر المقدس ، كأنما هي عروس النيل في صلاة أخيرة قبل أن ترمى
في أحضانه تغوص فيها . ودبت نسمة باردة بعثرت شعورنا ،
فما أحسننا وما اهتمامنا ، ولكن يبدو أن مُدَرِّسَتَنَا الأمريكية
العجوز المشرفة على الرحلة قد قاست منها ، فقد صفقت بيديها في
حذو وإصرار وهي ترتجف ، وصاحت بنا تشدنا إلى الأرض من
أفق تخليقنا :

— « هيا ... هيا يا بنات إلى الداخل » .

فلما علت هممتنا نحتج ونبتهل ، قالت :

— « إذن ألبس السترات الصوفية ، فقد يطول بكن الوقوف .

فنحن في انتظار ضيف للعشاء » .

فقطرنا بعضنا إلى بعض لحظات ، انقضضنا بعدها على
« مس جونز » ، نوسعها ضمنا وتقبيلا في فرح وغبطة بالغين ،
ونحن نصايح :

— « أحقا . تقولين ؟ أنتنظر ضيفا للعشاء ؟ هذا جميل ...

جميل جدا .. »

فخلصت المسكينة نفسها منا ، وربت بوقار شعرها القطني ،

وهى تقول :

« ... صه ... صه يابنات . ألا شيء من الرزانة ؟ أنتن شبابت
كبيرات الآن فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر ،
وينبغى أن تلزمن العقل ، .

وكنا نعرف بالتجربة أن « مس جونز » إذا ذكرت « العقل »
« والرزانة » فهناك رجال فى الجو ! لذا نظرنا بعضنا إلى بعض مرة
ثانية نتشاور فى تعجب صامت : أيمكن أن يكون هذا ؟ رجل ...
رجال ؟ نرى ، من ؟ لقد زارنا الكثيرون فى المدرسة ليلقوا إلينا
بعضاتهم وتجاربهم : رجال علم ، وفكر ، وأدب ... رسامون ،
وموسيقيون ، ورجال دين .. ولكن هنا .. على القارب البخارى ..
والوقت أصيل ... والجو مسحون بالسحر والخيال ... هذا جميل ،
جميل جدا !

تسللت أناملنا دون وعى تتخال خصلات شعورنا تمشطها فى
تلك الحركة الفطرية ، وأعملنا أسناننا فى شفاها نددغدها لتندفع
الدماء تخضبها بلونها الزاهى ، ومنا من شدت حزامها تضيقه لبدو
خصرها أكثر نحافة ، ومنا من مست أهدابها بألملة بللتها بلعابها
حتى تتلاصق وتبدو كثيفة ندية .

وأخرجنا من أحلامنا نهيق حمار منكر ، فهرولنا انتهافت على

الدرابزين نميل عليه نتناول بأعناقنا ، ونشرب بأنظارنا اللهي
نحو الطريق الضيق الأعفر المنحدر إلى الشاطئ ، لئرى امرأة
محيجة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، مقبلة نحونا ، ممتطية الحمار ،
تحف بها شرذمة من الأطفال ، شديو السمرة ، ناصعو بياض
الأسنان . ولا أحد غير ذلك .

فانخذلت أذرعنا لآحياة فيها إلى جنربنا من شدة خيبة الأمل ،
ونكسنا رؤوسنا ونحن نعود أدراجنا إلى الداخل ، وقد عولنا على
الاعتذار بصداع أو نحوه لنهرب إلى حجراتنا فى أسفل القارب ،
وننجو من مجلس ممل سقيم ، كل قوامه « مس جونز » العجوز
وضيفتها التى لا تقل عنها عمراً بحال ... إن لم تزد .

وَلَكَمْ أَدَهْشْتُنَا مُدْرَسَتُنَا الأمرىكية الطيبة وهى تهول مضطربة ،
تقع وتقوم ، تستقبل بترحاب بالغ واحترام شديد الضيفة التى
ترجلت عن حمارها بخفة ورشاقة ، ولم تعقها ملابسها التى تصل إلى
كعبها . وأدخلتها « مس جونز » إلى سطح القارب ، حيث وقفنا
نحن إلى جانب ننتظر ما يكون ، وأجلستها فى مكان الصدارة منه .
وللتو أحاطت بها تجلس عند قدميها شرذمة الأطفال التى تصحبها ،
والتي لا يكف أفرادها عن الابتسام ، فتبدو أسنانهم ناصعة البياض
وسط سواد بشرتهم .

وأشارت إلينا « مس جونز » ، أن نقرب . فراحت كل واحدة منا نَحْزَ أختها تدفعها برفقها لتتقدم قبلها . فرمقنا « مس جونز » ، بعيون غاضبة ، وقد عقدت ما بين حاجبيها ، وزمت شفيتها في خط رفيع ، مهددة :

« هيا يا بنات . أقبلن للسلام على « ست تفيدة » . فوضعنا مكرهات أكفنا في الكف الصغيرة المبسوطة لنا ، ولم نكلف أنفسنا مشقة هزها ، أو حتى الضغط عليها ضغطا خفيفا . ثم تبادلنا النظرات تتشاور في أمر فرارنا ، والنجاة بجلودنا مما يراد بنا .

فأسرعت « مس جونز » ، تقول ، وكأنما شعرت بما يدور في أخلاذنا :

« لتتخذ كل واحدة منكن مجلسا مواجها لـ « ست تفيدة » ، والقوم هنا يدعونها « ملاك الصعيد » ، ولنفتح أذنيها جيدا وتعي ما ستسرده علينا الآن متفضلة من تاريخ حياتها المجيد .

فأطعنا نغمغم ونندمدم ، ونحن نتنهد بحرقة ، وندير عيوننا في صمت واسترحام نحو السماء . شهادات مسوقات لا حول لهن ولا قوة . لم يكن يبدو هناك ما يثير بأمنية شائقة . . . ولم نكن بعواطفنا المشبوبة وخيالنا المجنون نقبل أقل من « شائقة » وصفا

لليلة صافية كاليلتنا تلك . ولكن عندما ارتفعت يدا الضيفة إلى رأسها في حركة رشيقة متماوجة لتحل نقابها ابتسمنا آمالات ، فلن نستمع لها ويذنا وبينها هذا الستار الأسود الثقيل ، وسنستطيع على الأقل أن نتأمل قسماتها ، ونرى أسنانها ، ونعرف هل تواظب على غسلها مرتين في اليوم كما تأمرنا « مس جونز » أو لا ؟ ثم هناك شفتاها ... أيضا . وكنا نحب دائما أن نقارن بين أى شفاه نراها وبين شفاه أحب الممثلات إلينا . وهذا في ذاته تسلية كبرى تلهينا عن متابعة الحديث إن كان مملا . وهكذا تبادلنا البسمات ، وحبسنا أنفاسنا نترقب سقوط النقاب .

وقد سقط . وسقطت معه قلوبنا تتمرغ رعبا وفزعا بين أقدامنا ؛ فنا من صرخت ، ومنا من لطمت فمها بكفها تحبس صيحة نكراء ، ومنا من دفنت وجهها بين راحتيها تنشج بعنف ، ومنا من تسمرت مكانها تحماق أمامها مشدوهة ، ممغطسة ، وقد سقط فكها وجمحت عيناها من شدة الرعب .

فقد كان الوجه الذى طالعنا - أو قل السحنة - سحنة شيطان : العيان بلا أهداب ضيقتان أشد الضيق ، والأجفان منتفخة محتقة ، والأنف - أو كان هناك أنف ؟ لقد تأكل ولم يتبق منه ما يدل عليه سوى منخارين فاغرين كمنخري هومياء ، وكان تحته

- أعنى الأنف - ثغرة معوجة مفترقة أبداً، تستبين منها أسنان
سوداء كالحة - أغلب الظن أنها الفم . أما الذقن فلم يكن له أثر .
اللهم إلا قطعة من اللحم كقطعة عجين خبصتها يد طفلة لاهية
ووضعتها كيفما اتفق في الوجه . والأذنان ... لا ، هي أذن واحدة
مكشاة وملتصقة بالرأس ... والشعر ... رماد أو عهن . والنتق ...
مغضن معروق . والجبين ... والوجنتان ...

قفزت عيوننا مجنونة تسيح في أرجاء المسخ الذى هو وجه
« ست تفيدة » ، وقد جلست فى هدوء وبداها على حجرها تضم
إحداهما الأخرى فى اضطراب وحلم . أما الأطنمال السود فلم
يطرف لهم جفن ، ولا حولوا عنها عيونهم وهم ينظرون إليها فى
حب وتعلق شديدين ، ينادونها بتحنان بين الفينة والفينة :
« ماما ملاك ! ماما ملاك » ! .

ولملت « مس جونز » شتات نفسها ، وقالت تعالج الابتسام
تخفى اضطرابها ووقع المفاجأة عليها :

« لقد سمعتُ عن « ست تفيدة » وتضحياتها التى هى
كأسطورة ، وسخائها المنقطع النظير ، وأعمالها الخيرية الخالدة فى
تلك القرية المتواضعة المجهولة وأنا بعدُ فى بلادى ... هناك فى
ولاية « دالاس » . كنت إذا قابلتُ أحداً من بنى قومى ، رجلاً

كانوا أم نساء ، وكانوا عائدین من رحلة إلى «مصر» وسألتهن عن الأهرام والنیل والآثار ، أجابونی بما يثلج صدری ، ويشیر رغبتی قوية فی زیارة تلك البلاد الساحرة ، ثم لم ينسوا أن یضيفوا فی ختام حديثهم : «ولكن أخلد من قابلنا وأروع ما سمعنا هی «ست تفیده» وقصة حياتها ... هناك ... بعيدا ... فی أحضان الصعيد الأقصى» .

وتنحنحت «مس جونز» تختلس نظرة جانبية إلى ضيفتنا ، كأنما تدعوها إلى الكلام . فلبت هذه الدعوة دون تردد ، وكأنما اعتادت مثل تلك الدعوات .

قالت وهی تمسح علی رأس جعد لطفل استکان جنبها :
«لست صعيدية كما قد يبدو للأذهان ، بل أنا من مواليد «القاهرة» أقمت فی حیّ «الزمالك» منذ ولادتی إلى أن بلغت الثانية عشرة من عمری ... وكنت ذات جمال باهر...» .

وأمسكت لحظة ، حتى فرغنا من ضحكنا ، وفرغت «مس جونز» من زجرنا ، ثم استطردت وكأن لم يحدث شيء :
«... ذات جمال باهر یخلب الأبواب ، جعل سيدات الحی - وكنت أزورهن بصحبة أمی - یولعنَ بالتغزل فی وتدللی ویتنافسن فی خطبتي لبنیهن ، ویبذلن فی سبیل سبق الفوز بی

النفس والنفيس ، وأنا لم أتعّد بعد تلك السنّ الخضراء . فلأنى
الزهو والغرور ، حتى نأيت بجاني عن رفيقائي فى المدرسة ،
وعزفت عن مخالطهنّ . فلما انتقلنا إلى « المعادى » فى « فيلا »
اشتراها والدى وسجلها باسمى - دون إخوتى - ثبت لدى ، بل
تغلغل فى أعماق روحى ، الشعور بما أمتاز به من قوة ساحقة
وسلاح طاغ بتّار . فازددت تعاقبا بنفسى ، وأصبحت والهة
بجهالى ، مغرمة ، مدنفة .

ولم ألّبت أن تركت الدراسة ، فقد خفت على عينيّ الصافيتين
من الإجهاد . فلم تصدنى أمى عن غيى ، ولا ردعنى أبى عن
طيشى . كانا فى نشوة بينوتى ، مسحورين ، مأخوذين فصرت . ملكة
البيت التى يخضع لها الجميع عن طواعية - أو مكرهين . ولكم
سلقت إخوتى البنات بلهب من السخرية ، وشهّرت بهنّ فى كل
مجلس ، لقلة نصيبهنّ من الملاحاة ، مما يذل النفس ويذى القاب .
أما إخوتى الشبان فسخرتهم عبيدا لخدمتى وقضاء طالباتى . والويل
كان لمن يتباطأ ... ولا أقول يرفض أو يتردد . كنت أثير عليه أبى ،
فيمسك عنه حنانه ومعاونته المالية ... بل ينبذه من زمرة المرضى
عنهم حتى يعود متذللا كسيرا .

وأقحمت نفسى فى مجتمعات وحفلات تضم من يفوقونى عمرا

بمراحل بعيدة . فأذهلت الجميع بنضارتي وبهاء جمالي . وتهافت على الرجال في جنون واندفاع . ذبانا يترامى على صحن من الشهد البرى فيه هلاكه ، وقد استحال عليه الدكاك من برائن الموت اللزجة الحلوة !

هكذا كنت . لا ينجو من نعودتى وظرفى وبرائن جمالى رجل تطاع إلى آملأ أو طامعا . فانزوت النساء حسيرات يقرضن الأامل يدمينها غيرة منى وكدا . وقد خبا جماهن إلى جانبي ، وانطفأ بريق عيونهن . فألهب هذا دمائى ، ووخز شياطينى ، وأوغر قلبى الطاغية . فلم يعد هناك ما يطربنى أكثر من زوج هجر زوجته وأولاده من أجلى ، أو شاب فصم خطبته أو جافى حبيبته .

فأطلق الناس على اسم « الشيطان » . وبرغم ذلك لم أتبدل مرة . فقد بخلت بنفسى على كل خلق الله دون استثناء .

كنت أنتشى بالنزال ، وأنا أعرف نتيجة سلفا . فألزم مكانى فى حفل أو مجلس لا أفارقه ، مرفوعة الرأس هادئة ، كأنما أمتن على الكون بوجدى . على حين يتهدل ذيل ثوبى الفاخر الثمين حولى وعلى جوانب مقعدى فى كَثِيَّاتٍ سخية كالإطار حول صورة مجسمة للجمال السابى . وأتطلع من عليائى ذات اليمين وذات الشمال أختص هذا بنظرة ، وذلك ببسمة ، وثالثا بإيماءة ... ولا شئ غير ذلك . فتضطرب القلوب ويجن جنونها ، وتطيش العقول

وتتخبط ، وأبتسم أنا بجذل أرقب كيف يتصرف أصحابها ، وقد
حلّ عقالمهم ، فنسوا من حولهم ، واندفعوا كقطع من الأغنام
تنساب مزاحمة يدعوها زامر خفى ...

ثم حدث أن أغرمَ بي شاب إلى درجة الهوس . وتمادى في
حبّه وتهوّر في تشبيهه ، حتى كان يبعث إلىّ مع شروق كل شمس
طاقة من نادر الورد يأتى به من موطنه ، هولندا ، فى طائرة تقوم
به خصيصا بعد قطفه . فإذا ما انتصف النهار سمعت صوت بوق
سيارة أمام بيتنا ، وما يلبث الخادم أن يأتى إلىّ حاملا صناديق
من الحلوى وزجاجات العطور ، فأشير إليه بأنملة - وقد أتخمنى
الغرور - لكي يهيلها على أخوات لها فى ركن تكدست فيه
أكواما . ويفنى الفتى نهاره وشطرا كبيرا من ليله محنوما ،
ولهان ، لا يستقر فى مكان ولا يهدأ له حال . وقد أخرج
متهادية إلى شرفة حجرى ثوانى يكحل برؤيتى عينيه ... وقد
لا أخرج . وقد أشبك إحدى وريداته بدبوس فوق صدرى ،
وأقبل دعوته للعشاء أو للزهوة ، وقد أقذف بالطاقة كلها فى وجهه ،
فتتصف الرءوس الفواحة الزكية وتتناثر ، فأسحق بقدمى
وريقاتها المخملية : وهو ينظر إلىّ متألما دهشا لا يعرف أبدا
ما أغضبني وما أَرْضاني .

وكان وحيداً أمه ، مات عنها أبوه وهو ما زال يتعثر في مشيه ،
وخلف له تجارة ناجحة . فبذلت الأرملة التي لا نصير لها من دماؤها
ودموعها لتحفظ بالثروة وتنميها لتييمها الصغير ، ثم ماتت
أخت لها عروس وهي تضع . فجاءها زوجها بالوليدة مغمضة
العينين قد كورت قبضتها تمصصها بنهم ، واستحافها بالغالية التي
ذهبت أن تكفل بطفلها . ثم اختفى . قيل إنه تزوج ، وقيل
إنه هاجر . لم يتأكد لها الأمر . كل ما عرفته أن عبثها تضاعف ،
وأن شبابه ولي قبل الأوان ، حتى ترعرع « مدحت » وشبت
« صفاء » عن الطوق .

ونشأ معاً متحابين ، يحذب الفتى على ابنة خالته . وتتفانى تلك
في خدمته وتلبية مطالبه ، والأم ترقبهما بقلب راض . فلما أتم
دراسته وتسلم تجارته تنفست أمه الصعداء ، وعقدت خطبته على
« صفاء » حتى تطمئن على ربيبتها في كنف زوج محب محبوب .
وساد الأسرة الصغيرة هناء ، ورفرفت عليها سعادة ، حتى لحنى
« مدحت » في إحدى السهرات ، ففسى خطيبته ، وحل أناملها من
حول ذراعه ، ومشى إلى كالسائر في نومه ، وخلفها بين الناس
حيرى محرجة تفرك كفيها وتشرق بدموعها .

وأهمل « مدحت ، تجارته ، وراح يطاردني ويفدق على الحلى
والمجوهرات بغير حساب . واشترى باسمي حصانا جرى
في السباق ، وخصني بمكسبه . فلم يلبث الدائنون أن ضيقوا عليه
الخناق ، فاضطر إلى شهر إفلاسه ، وحاول الانتحار مرتين
أسعف في كليهما . وتناهت إلى أخباره ، فهزرت كتفي
المرمريتين العاريتين ، وقلت للجارية التي كانت تدلكهما ساعتئذ
بدهان خاص :

« ومالى أنا ؟ » .

ونسيته . قذفتُ بذكراه إلى ركن مظلم قصي من عقلي .
ومرت أيام . وانطوى عام . وأشرف عام جديد .

وكنت خارجة ظهرا من عند الحلاق ، بعد أن صفت
شعري الكستنائي السخى بطريقة مبتكرة أبرزت مفاتي وكستني
بهالة من البهاء استعدادا لسهرة رأس السنة ، عندما اعترضت
طريق امرأة حسبتها شحاذة لهلاهيلها واعتفارتحتها . فما توقفتُ
ثواني متقززة لأزيجها عن طريقى ، حتى قذفتُ وجهي بغتة بسائل
كان في زجاجة تحببها بسرعة البرق من عبا . فصرختُ - بل
قل زارت - متلوية والمادة الكاوية تشوى لحمي . فحملوني

إلى المستشفى ، وبذلوا أقصى الجهود لإنقاذ حياتي . فنجحوا ...
ولكن بعد أن مسختُ شوهاء تعافها العين . .

وصمتت « ست تقيدة » لحظة ابتلعنا فيها ريقنا بصعوبة ،
ونحن تبادل نظرات جزعة مشفقة ، ولا نجروء على أن
نفتح شفاهنا بحرف . فاستطردت هي تلتقط الحيط من
حيث تركته :

« ولقد قبضوا على المرأة ، وجاءوا بها إلى لا تعرف عليها ، وأنا
ملقاة كالخرقة وسط ضمادات لا تستبين منها سوى عيني » .

نظرت إلى المرأة . لم يخطئوا . كانت الجانية . لكني
- للعجب - لم أشعر نحوها بأى بغض أو حقد . ماذا دهاني ؟
ماذا حدث ؟ لست أدري . كل ما أدريه أنى استلقيت دقائق
صامتة لا يبدو على شيء ظاهر ، على حين اشتد الصراع
وعنف في صدرى بين الشيطان الذى لبسنى جميلة فاتنة وبين
روح صافية جديدة غريبة على تسالت إلى دمائى كأنما طهرتها
النار السكاوية . وراح صدرى يعلو ويهبط من قسوة النزال
وبصرى عالق بالمرأة . وكأنما خشى شيطانى الخذلان ، فقد
استصرخنى محرّضا يستفزنى بفحيحه وهمساته ، فما اهتزت

وما لبيت . وتركت الروح الجديدة تغشاني كشعاع الشمس
تضيء أرجاء نفسى المظلمة العفنة . وكانت آلامى فوق
طاقة البشر ، لكنى استعذبتها وتقبلتها فى صمت ، لا أننّ
ولا أتوجع .

فكأنما استبطأنى الضابط الذى صحب المتهمه ، ليأخذ
أقوالى ، فقد مال على يقرب أذنه من فمى :
« أتستطيعين النطق أم لا ؟ » .

فلبا هززت رأسى أوكد قدرتى ، قال :

« لقد قبضنا على هذه المرأة تحاول الزوج من مكان الحادث .
لكننا فى شك : هل هى المجرمة ؟ أنظرى إليها جيدا . ستكون
كلمتك الفاصلة .

فقممت على مرفقى أعالج الجلوس ، فأسرعتُ إلى ممرضتان
تمنعانى . لكنى أصررت ، فاضطرتا إلى الخضوع . فلبا طفقت
أحل الضمادات عن رأسى ألقنا بنفسيهما على تقييدان ذراعى
إلى جانبي فدفعتهما جانبا بقسوة ، ورحت أقاومهما بقوة خارقة .
فهرولتا إلى الخارج تصرخان فى طلب نجدة . فمشيت إلى الباب
وأغلقتة خافهما بمفتاحه ، ثم استدرت نحو الضابط والمرأة

وزحت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ، فلما سقط آخر شريط مخضب عن رأسي ، صرخت المرأة وانكفأت على نفسها تتمايل وتنشج . أما الضابط فقد رأيت من تقلصات وجهه ونظرة عينيه ما صرت عليه من بشاعة فابتسمت - لدهشتي وعجبي ... ابتسمت في استسلام ، ومشيت إلى المرأة الموضوعة على منضدة صغيرة ، وانحنيت عليها أنعم النظر في الحروق ... والمزق ... وبقايا منشور شعر كالتراب .

وعلا الضرب على الباب ، والدق من الممرضات والأطباء الذين تجمعوا ورائه . لكنني أصممت أذني عنهم ، ولما حاول الضابط فتحه لهم أشرت إليه ضارعة أن يتمهل هنيهة ، ثم قلت له :

« إليك يا سيدي قولي الذي جئت من أجله : لم أر هذه المرأة في حياتي قبل اللحظة ! أطلقوا سراحها ، وسقطت مغشياً عليّ . »

ولما شفيت ، بعث الحصان ، والكلاب الخمسة النادرة ، والسيارة المبتكرة التي أهدانيها « مدحت » ، وملت كل الحلى والمجوهرات وعقدتها والنقود في منديل ، ثم ذهبت إلى بيته حيث دفعت بها بين يدي أمه ، وأنا أقول :



١٠٤

... رحت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ...
فصرخت المرأة وانكفأت على نفسها تتأيل وتنشج ...

«هاك سيدتى ... هاك ما سابت ابنك . يبعيها وابدءوا معاً
حياة جديدة ... فهى أموالكم . وزوجيه من «صفاء» فهى خير
رفيق ، وأوفى أنيس ... ليبارككم الله » ! .

فالتفوا حولى ... «مدحت» وأمه و «صفاء» ... يقبلوننى
ويكون ، وأنا أستدير لأغادر الدار . وعلى عتبة الباب همست
فى أذن أمه وأنا أحتضنها :

« لقد شفيت روحى فشكرا ... شكراً على ما فعلت بى ! » .
نعم ، فلقد كانت هى الجانية ...



صلاة الزيت

« مدبولى ، هذا كان شَجِيعَ الحى . شباب ، وفتوة ، وتناسق
فى القسَمات يهيج العين ، ويسر الخاطر . جلبابه مشقوق الصدر
عن وَشْمٍ أسد شاهر سيفاً ، وطاقيته الشبكية الصغيرة تميل بزهو
وخيلاء عن شعره الغزير المنمق . وبيننا تطل فلة فواحة لا تغيب
أبداً حيث علقها فوق أذنه اليسرى ، تندس لفافة تبغ أو اثنتان
وراء أذنه الأخرى . لمشيته تمايل وتثاقل كأنما ينوء بعوده
أو يشقله المديح والتودد . يخطو الخطوة شحيجا فى تمهل ، إله صغير
يتعطف على الكون بتنقله ؛ بل بوجوده . لوقع حذائه ذى المسامير
الحديدية على حوافيه رنة لها فعل السحر فى القلوب قبل الأسماع .
أما الصبايا الملاح فكنّ يعشقنه ، وأما أمهاتهن البيض ذوات
البراقع الهفهافة والعصائب الزاهية المعوجة على حاجب ، والملاءات
اللاتى زمنها بنخب حول الخصور والأرداف ، فكنّ يتملقنه ،
يتهاقن عليه . تحاول كل واحدة أن تظفر به لبنتها بعلا .

وأما الرجال فقد عقدن له لواء الزعامة منذ كان في الخامسة عشرة من عمره ، وليس منهم من لم يذق لطفة من كفه الضخمة ، أدارت الدنيا رأسا على عقب أمام ناظريه ، كأنما رفسه حصان .

وكانت « قهوة اللطافة » تقع على ناصية الحارة ، وقد كدس فيها صاحبها - « المعلم أبو العلا » الكراسي الخيزرانية ، والأرائك الخشبية المبرقشة . والمناضد الصغيرة الرخامية السطح ، وجاء فيها بأباريق ضخمة نحاسية ذات جلاجل ، وأكواب مزخرفة بورود خضر وحمر وصفر ، وعالق على وجهتها مذياعا يجلجل في الحى . فما يهل « مدبولى » بقامته المديدة وكيانه الفحل يستد باب « القهوة » ، ويدور بعينى صقرٍ فى أرجائها ، وهو يدق بهراوته الأرض بين لحظة وأخرى دقات تصرخ « نحن هنا » ، وعلى وجهه الوسيم القاسى تتلاعب بسممة متحدية - حتى يهرول « المعلم أبو العلا » وصبياناه يفركون الأكف ، وينحنون ويفسحون الطريق مرحبين به وبعصبة المنعطلين التى تحف به . فيسير « مدبولى » مترنحا تسكره عظمة ، إلى أريكة خصصت له فى صدر المكان ، عليها وسادة فستقية ، بسطت أمامها على الأرض فروة كبيرة ممشطة ومخضبة بالحناء .

ويصرع الشجيع نهاره ، يكرع مقادير من القرقة والشاى ،

أو الخروب وشراب الليمون والشعير ملء قِدر ، وهو يلقم فاه قطع « البسبوسة » ، و « الهريسة » يأتيه بها متبسا متقربا زُلْفى - كأنما يسأل إحسانا - « عم حنفي » بعد أن ينتقيها تنز بالسمن والشراب ، من فوق صينيته التي يحملها على رأسه ويدور يسترزق من بيعها . ويقف بائع الأطعمة الجوال بعربته عند مروره أمام القهوة من تلقاء نفسه ، ويدفع الضريبة اليومية طبقين مترعين بـ « الكشرى » و « المكرونة » ياحقهما « مدبولى » بـ « البسبوسة » . ثم يلتفت وهو بعد يمضغ ويتشّدق إلى طبق « المهلبية » الضخم يناوله إياه بائعها . أما أرغفة الخبز المقمر الساخن اللذيذ فلا تسل عن عددها ، لأن « الحاج عبده » الفران يرسلها فى سلة مغطاة بفوطة . ويزعق « مدبولى » - وأشدّ دأقه محشوة بالطعام تكاد تتمزق - يسب ويلعن رسول « المعلم ضبعة » الجزار ، ويقذف فى وجهه بفخذ اللحم النيئة التى أناه بها ، فيلتقطها المسكين وهو يرتجف ، ويتقهقر يغيب ساعة وبعض الساعة ، ثم يعود بها ثانية مطهّرة ومهيأة بالتوابل والبهار ، وفوقها اعتذار « المعلم ضبعة » واستسماحه . فيعمل فيها « مدبولى » أسنانه وأصابعه نهشا وتمزيعا ، حتى يمتلئ : فيلقى بقيتها إلى أتباعه ، ويتكئ بمرفقه إلى ظهر الأريكة ، وهو يتجشأ بصوت كالرعد . فيسرع

الحاضرون يهتفون :

« صحة وعافية على بدنك » ! .

فيرفع يده مثاقلا يربت صدره ، ويلقح بذراعه ناحية المذراع . فإذا كان مغلقا أداره « المعلم أبو العلا » ؛ وإذا كانت النغمات تنطلق منه صاحبة مرحة ، أغلقه على الفور .

ويتوقف أهل الحى الحى فرادى وجماعات فى طريقهم إلى أعمالهم يحثون شجعهم ، ويدسون فى يده « المعلوم » وويل لمن يتأخر أو يتهرب أو يحاول زوغانا من الدفع . فهناك حادثة المطربة بنت الحى التى أحييت مرة زفافا بلغ « مدبولى » أنها جمعت فيه قطعا فضية وذهبية كثيرة مما ألقته أم العروس على ابنتها ساعة الجلوة . فأرسل إليها من اعترض طريقها يوما يسألها وهو يشير إلى العود الذى تحمله لتضرب عليه ، وهى تغنى :

« أأكسره ، أم أكسر دماغك ؟ ... »

فهزت كتفها ومضت عنه ، ليعثروا عليها الليلة التالية فى أحد الأزقة البعيدة المظلمة جثة مهشمة الرأس . واستنفدت الجريمة بحوث الشرطة ، واستنزفت جهود رجال النيابة . ثم قيدت ضد مجهول ، وأهل الحى صم ، بكى ، عمى . حتى أهاها كتبوا لوعتهم فى قلوبهم . كيلا تكون هناك من بينهم ضحيتان !

ومع ذلك كان معبود النساء . يهوين بطشه وجبروته . ويذبن

صباية فى نظراته الفاجرة إلى نحورهنّ وصدورهنّ . وتطرب منهنّ
الأذان وتنشّ القلوب ، أثناء مرورهنّ أمام القهوة ساعة
الأصيل . وهو جالس فوق أريكة الشّرف على الطّوار . ييسط
كفيه يصفق طويلا ، ويشيعهنّ بتحيته المألوفة :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! »

وقد تضطرب إحداهنّ وتتعثّر فى ملائتها . فيصيح وهو
يهبّ لمساعدتها :

« اسم الله ! » .

ويقبض على ذراع بضّة ، أو يحتكّ بفخذ ، غضة حتى تلمس
المرأة نفسها : فيقول لها وعينه فى عيناها :
« أموت أنا ! » .

ويشيعها بصفقة أخرى طويلة من راحتيه الكبيرتين :

« صلاة الزين ، صلاة الزين ! » .

وكان يعيش وحيدا ، تتقاتل النسوة على خدمته ، وغسل
ثيابه ، وملء القلتين وتبخيرهما . وتنظيف حجّرتة ، وتسوية
فراشه . هذا على الرغم من زوجاته . إى والله - زوجاته : أربع
من أجمل بنات الحى ، يتامى كلهنّ ، وليس فى الوجود من يدس
أنفه فى أحوالهنّ ومعيشتهنّ . فألحقهنّ « مدبولى » « بيدت » - وقيل :

باعهن - يعملن ويعدن بالكسب إليه . وقد تجرأ شيخ وقور ذات مرة ، وسأل « مدبولى » متوددا :

« لم يخرجن ويتكسبن يا « مدبولى » يا عترة الحى :
وخيرك كثير ؟ » .

فضرب المنضدة التى كانا يجلسان إليها ضربة كادت تقصمها نصفين ، وصاح محتدا :

« كفى ... مزاجى !.. صنف النساء صنف لثيم ! اكسر أنفه وأرهق بدنه بالعمل . يأمن الرجل منا شره . آه - أسألونى أنا ! » .
وكانت تزوره زوجاته ، لكل منهن ليلة فى الأسبوع ، فتأتى متلعة بعتمة المغرب منهوكة القوى ، مهیضة الجناح ، وإن تأنقت وتكحلت وتعطرت . فتمشى جنب الحوائط فى الحارة منكسة الرأس حتى تصل إلى دار « قانيها » . فتبيت ليلتها ، وتعطى زوجها ما حملت من نقود وفاكهة ، أو ما جلبت من هدايا : جلاب حريى ، كوفية ، منديل . وتنسل عائدة إلى « عملها » مع أول خيوط الفجر ، لا تجالس جارة ولا تحي جارا من قريب أو بعيد . وكانت الثورة تضطرم فى صدور الإماء وهن مستكينات . كل لظمة على خد إحداهن كعود من الحطب يخز النار المتأججة يزيد لها اضطراما . تكشفن من ذاقت عصا « مدبولى » فى ليلتها

عن كتفها ونفوذها وهي تشرق بالنحيب ، فتواسيها الأخريات
وتمتزج دموعهن : واحدة مشفقة لذكرى ما حل بها نفسها يوما ،
وأخرى ناقمة على دنياها تـبـكي ضيقا وغيظا ، وثالثة متشفية
- أليست ضررتها ؟ - تعصر قطرات من الدمع بحاملة .

ثم هربت « توحيدة » . وحبست زميلاتها أنفاسهن يترقبن
ما يحل بها في فضول وحسد ، شأن من يضر أن يخذو حذوها .
وطالما نصحن لها بالتعقل والاصطبار على القسمة والنصيب . ولم
تكن النصيحة دائما خالصة لوجه الله ، وإنما ناوشهن خوف أن
تنجح في الإفلات وتنجو بنفسها . وربما لا يسعدهن الحظ مئاهما ،
فيشربن دونها العلقم إلى آخر قطرة في الكأس .

وقد صدق حدس البائسات ، فكان الذنب الذي أنزله بهن
« مدبولى » هو السجن ، والرقابة الشديدة ، و « العمل » المضني
يستنزف دماءهن في ذلك « البيت » - حيث الحقهن - على حين
يتسلم هو المرتب من « ذوى الشأن » . ثم جاء من همس
في أذن كبيرتهن ، وابتسامة كريمة ذات مغزى مُعَوِّج
فمه إلى جانب :

« توحيدة ... تعيشين أنت ا » .

ومرت ساقية الأيام تجزرن في عجلتها ، دواب يأخذ برءوسها

الدوار ، فلا تملك إلا الاندفاع في المدار .

ثم ماتت إحداهن - « بدرية » ، ذوت ، وذبلت ، وانهمر عودها . وكان القوم يتحسرون عليها ، ولا يملكون إلا هز رؤوسهم خلفها أسفا ، وهم يرونها في كل زيارة لها إلى الحى وقد سَرَّحها مستأجروها تفرزا - تذوب على مر الأيام وتسعل سعالا خشنا لا يرحم ، يهزها هزا . فترتكز إلى جدار تلتقط أنفاسها وتبصق في منديل تطويه مسرعة وتدسه في عيها ، وهي تلتفت حولها . ثم تستأنف سيرها تلتقط « عملا » هنا أو هناك .

ونفض « مدبولى » يديه بعد دفنها ، واستعد الحِطبة وزواج جديد . فنشطت الأمهات البيض ذوات الملاءات الهفافة . لكن لم يعرهن الرجل التفاتا . البنات نضرات كالورود ملفوفات العود ، ناعمات الشعر . قد ذهبن إلى المدرسة و « المعلمة » ، وأجدن تفصيل الثياب وشغل الإبرة وفك الخط . ماذا يرضى « مدبولى » أكثر من ذلك ؟ ليست زوجاته الحاليات - ولا الأربع اللاتي سبقنهن - بأجمل من « فردوس » ، و « سوسن » ، و « ثريا » . من تمر على باله ؟ ماذا يدور بخاطره ؟

والغريب أن الأمهات لم يتشاءمن به ، ولا أجفلن من تاريخه الحافل . بل لم يخشين على فتياتهن من الحياة في كنفه . ماله ؟

اسم النبي حارسه ... رجل تمام - طول وعرض وفتوة ! رجل
ملء ثيابه ، يسيل الخير بين يديه ، ويلعب بالنقود لعبا ! والرجل
عنه جيبه !

كانت كل واحدة تطمع بل تشعر عن إيمان أن بنتها هي
المحظوظة التي ستكون أسعد حالا من غيرها معه ، لأن الأم
وأقاربها سيضطرونه أو يتحايلون عليه بطريقة ما - لن يعدموها
ساعتئذ - كي يعيش وعروسه بينهم فيتحوّل كل الخير من هبات
وهدايا إلى بيتهم . خطة سهلة ساذجة . وهكذا شهدت الأسطح
مؤتمرات الأمهات والخالات والعلمات يقلبن الأمر على شتى
وجوهه ، بين أكل الخس وتسالى اللب ... لكنه - « مدبولى » -
لم يكن من البله بحيث يقع فى الشرك . هو زاهد إلا فى
« المقطوعات من شجرة » ، ولن يحيد عن خطته . لا أم تشاكسه ،
ولا أب يضايقه ، ولا عم يناقشه الحساب .

بيد أنه حاد . وطمس الحب - لأول مرة فى حياته الزاخرة
بالنساء - على ناظره ، ورشق سهامه فى طود حرصه لينساب
حذره من الثغرات قطرة قطرة .

أحب « زينات » - طفلة دون سن الزواج ، كالرمح اعتدال
قائمة كأنما صبت فى قالب رائع . ترفل لاهية فى أربعة عشر ريعا

من صخرة متفجرة : وجه صبيح نضر ، وأعطاف متناسقة تتماوج في
مشيها ريانة ، تشوى . وكانت تعيش وجدتها العجوز غاسلة الثياب
في حجر مظلم في أسفل منزل يتكئ إعياء على جيرانه ، يكاد المرء
يسمع لُهاثه وتقصف ضلوعه وهو يتماهى بدسالة وجلد ، كيلا
يهوى جثة هامدة .

ولقد رأى « مدبولى » ، « زوبة » ، أول ما رآها تتضارب في
الحارة مع يَفَع غازها في الطريق بوقاحة ، يضيق عليها الخناق ،
حتى أوقع عن كفها صحن « الحلل » الذى كانت تحمله للغداء .
فوقف « مدبولى » يرقب النَمرة الفتية بإعجاب ودهشة ، حتى إذا
انقضت تضرب الأرض برأس الغلام ، وتبرك على ظهره ، تكاد
تزهق روحه ، قبض على ذراعيها من الخلف ، ورفعها وهى تسب
وتركل الهواء بعيدا عن الفتى الذى أطلق ساقيه للريح ، دامى
الأنف ، متورم الشفتين ، تحيط بعينه اليسرى هالة بنفسجية .
أما هى فلم يصبا سرى انزلاق منديلها عن شعرها السخى ،
فانسكب في ثورة عارمة متدفقا على كتفها .

وأطلقها « مدبولى » ، وتراجع خطوتين يتأملها ، كأنه في
سوق يعاين مهرة أصيلة . فاستدارت « زوبة » إليه ويدها
على خاصرتيها :

« مالك أنت ومالنا ؟ لم تنحشر فيما لا يعينك ؟ ،

فأجابها وهو يحب جمالها الغاضب عبًا :

« أ كنت تنوين قتله ؟ »

— « وماذا في ذلك ؟ لن يضار أحد إن أنا أنقصت عدد

المائتين واحداً ! » .

فابتسم في حلم ، وعيناه تفتّان تلمّان بكل شيء فيها :

« هكذا ؟ » .

— « وأكثر ! وسيدى « أبو العلا » لو تمكنت من عنقه

لما أفلته سليماً ! » .

« هكذا ؟ » .

فكأنما أطمعتها سماحته أو أثارها هديره ، فقد تقدمت منه

خطوتين تمط عنقها صائحة :

« مادمت تدخلت ومنعتني قسراً من الأخذ بثأرى ، فسأبرد

غليلي فيك ! » .

فلم يجبها ، إذ كان مشغولاً يرمقها وعقله يعمل سريعاً .

— « سأبرد غليلي فيك ! » .

قالتها مرة ثانية ، وانقضت عليه تضرب صدره بقبضتها ،

وتعض ، وتبصق على ما أمامها من جرمه الضخم . فأحاط

« مدبولى » جسدها النحيل بذراعيه وضمها بعنف شل يديها
وضغط رأسها إلى كتفه . وقهقه وهو يهمس فى شعرها :

« لم أمسكتِ عن ضربى ؟ »

ثم أضاف غمازا : « أو ربما لا أهون عليك ، .

فتملصت بين ذراعيه تحاول الفكاك وهى تسبه وتلعنه .
فرفعها وحملها ، عصفورة لاحول لها ولا قوة ، وسار بها . فأشار
واحد من بين الزحام الملفت حولها إلى البيت المتداعى فى آخر
الحارة ، وصاح :

« هناك - فى الدور الأرضى ... » .

وقابلتهما « أم بسيونى » - جدتها العجوز - مهرولة ، وقد بلغها
نبأ المعركة . وتعلقت بذراعى « مدبولى » تحاول إنزال الفتاة
أو أخذها منه ، لكنه زجر ودفعها جانبا بمرفقه ، وخطا بحمله
الجميل إلى الجُحْر الرطب حيث تقيم . فارتمت العجوز مستميتة
على « مدبولى » تمسك بتلابيبه ، ودلفت معهما إلى الداخل .
وأغلق الباب خلفهم جميعا .

وشاع النبأ فى الصباح أن « مدبولى » خطب لنفسه « زينات »
حفيدة « أم بسيونى » الفقيرة ، الكسيرة ، غاسلة الثياب . فتعلقت
حواجب النساء دهشة وعجبا ، ومنها ما تراقصت فى سخرية

واستخفاف تخفى كمد صاحبتهأ وهي تقول للجارات :

« زينات ؟ ومن هي البنت « زينات ، هذه ؟ الحافية التي
يكسو الطين قدميها ، ويعلو القشف ساقها ؟ » .

وهمست أخرى بحث :

« والني يا أختي لو بحثت لوجدت أن الرجل انساق بقوة
السحر . فالمرأة « أم بسيوني » ، هذه التي تتصنع البؤس والوهن
ما هي إلا ساحرة قوية العين ، تبث الليالي القمرء تدمدم وتغمغم
وتطلق البخور في جحر العفاريث هذا حيث تعيش ! » .

فانفجرت مولولة امرأة لم تستطع إخفاء غيرتها وحسرتها :
« عني عليك يا بنتي يا « لوزة » ! فلّ والني - بيضاء كالقشدة
ولكن ... ماذا نقول في قلة النصيب ؟ » .

ثم انتفضت تؤكد بغلّ :

« لا بد أن « أم بسيوني » تسحر لها كي تظلّ عانسا !
ووافقتها الأخريات ، وتبرعن باللغات والدعوات غير
الصالحات يصيبنها صبا بسخاء على العجوز وحفيدتها . وزادهنّ
الصباح التالي كمدا عندما أسرّ بائع اللبن إلى « أم كريمة » أن
« مدبولي » دفع مئة جنيه بالتمام والكمال مهرا لـ « زينات » ،
فترنحت المرأة كأنما لكها الرجل ، وضربت بكفها صدرها

وشهقت - وعيناها جاحظتان - شهقة كادت تفلت معها روحها ،
وتركت اللبن على عتبة الباب ؛ وأصمت أذنيها عن صياح البائع
في طلب نقوده ، وهرولت إلى نافذتها التي تطلّ على الحارة ،
ونادت في صوت مضطرب حاد :

« خالتي » نفوسة ، ! « أم سعدية ، ! عمتي » أم فردوس ، !
حاجة » أم عوض ، ! إلى ... إلى ... » .

فانفتحت النوافذ في كل بيوت الجيرة على مصاريعها ،
وأطلت منها النساء : واحدة بقميصها لم تكمل بعد ارتداء ثيابها ،
وواحدة تمشط شعرها ، وأخرى تضم وليدها وقد ألقته ثديا
كبيرا عاريا ، ورابعة تقلب السكر ليزوب في كوب الشاي .

وصحّن في صوت واحد :

« مالك يا أختي ؟ » .

فلوّحت « أم كريمة » بيديها يمينا وشمالا في ولولة صامتة
بليغة ، كأنما اندلقت مصائب الدنيا على رأسها .

فقالت « نفوسة » :

« سلامتك يا أختي . أمریضة أنت ؟ » .

لا جواب .

فانبرت « أم فردوس » تصيح :

« يا ندامتى ! « أبو كريمة ، مات ؟ » .

وتبعها « أم سعدية ، تتساءل :

« ... « كريمة ، أغمى عليها ؟ » .

ولاحقتها « أم عوض » :

« كفى الله الشر ! موقد النار انفجر ؟ » .

وسابقتها التى ترضع طفلها :

« أسرق اللصوص حلاك ؟ » .

واشتركت التى تشرب الشاي :

« أبو كريمة طلقك ؟ » .

ولا حياة لمن تنادى ... « أم كريمة ، على حالها ... اليدان

تلوحان يمينا وشمالا ، والرأس يومئ أسى ولوعة . كل

ما هنالك أنها دست يدها فى عبا تبحث بين نهديها السمينين

لحظة أخرجت بعدها قرشين ألقت بهما إلى الحارة ، حيث

وقف بائع اللبن رافعا وجهه إليها يلوح ، ويزعق فى طلب

نقوده . وعادت إلى نواح الإشارات ... فصاحت امرأة نهش

الفضول صبرها :

« طمئنينا يا أختى ... إلهى يطمئنك ! » .

فرمتهن « أم كريمة ، جميعا بنظرة طويلة ، ثم مالت على حافة

النافذة إلى نصفها . وألقت بالقنبلة .

فدقت النسوة الصدور . وتلفت بعضهن إلى بعض في كمد
ذاهل . إلا أم عوض ، العجوز . تمصت شفيتها المجعدتين
وتأودت بعنقها الأعجف تقول في تهكم لاذع :

« وما لها زينات ؟ غزال عيونه ملاح . وحسنه لاح ! » .

ثم أضافت :

« على رأى المثل : الغيرة نار . يا أهل الدار ! » .

وأغلقت نافذتها بعنف في الوجوه المغيظة المحدقة .

فانهال عليها السباب من كل صوب . وكيف أنها تمهد
لحضور الزفاف حتى لا تفوتها ، أكلة ، : وكيف أنها ساحرة
تحامي عن زميلاتها « أم بسيوني » وكيف ... وكيف . وهى خلف
النافذة تضحك في كمها . لقد كادت جاراتها ... وهذا هو المهم .

وجاءت « أم أحمد الدلالة » تحمل صرتها وأخبارا جديدة
مثيرة : فالتففن حولها يسرفن في شراء مناديل الرأس الزاهية ،
والأمشاط واللادن والروائح العطرية حتى لا تنحى عنهن شيئا ...
هيه ... ماذا هناك من جديد ؟ ... الشبكة : سوار ذهبي عيار
أربعة وعشرين تنوء اليد بحمله . و « زينات » : اشترت دسته
من العقود الخرزية والزجاجية الرائعة . وجعلت لكل عقد

عصابة رأس تضاهيه لونا حتى يكونا «طاقما». وماذا أيضا؟ خمسة أزواج من الأحذية الجلدية الملونة، وعشر قطع من الحرير الهندي تخب الأبواب. وأثاث البيت؟ ماذا جابت بالمئة جنيه؟ ألم يبلغكن الخبر؟ هنيئا لها - «أم بسيوني»! لقد تجلت لها ليلة القدر... عندما أعطها «مدبولى» المئة جنيه أعلن أنها هدية لها، وأنه لا يريد منها سوى عروسه بالشوب الذى ترتديه. ولا تسلم عن الهدايا التى تتساقط على «زينات» وجدة «زينات» من «مدبولى» وأحباء «مدبولى»!.

و «سفروت» و «دقدق» و «كتسكوت» - صبيان الحى يحومون حول بيت العروس اليوم كله، وينقلون إلى أمهاتهم كل ما يجت من أمور. «مدبولى» استأجر شقة فى العمارة الجديدة التى بناها المعلم «ضبعة» الجزار، وأثاثها بمتاع فاخر. «مدبولى» أرسل إلى «زينات» خروفا وديكا روميا وقفصا تطل منه رؤوس دجاجات لا عدد لها. «زينات» خرجت مبكرة فى صحبة من لِدَاتِهَا إلى «حمام السوق». «أم بسيوني» أقامت الزينات وعالقت الرايات والثريات فى سرادق ضخم أمام جحرها. لقد عقد القران. ولكن - أليست البنت صغيرة؟ كيف رضى المأذون؟ هددوه. وهل يسكت فيعرض نفسه للمسئولية؟ وهل

يجرؤ على التبليغ فيعرض نفسه للقتل ؟ دعونا منه - لقد أقبل
الطبل البلدى ! اليوم الزفاف !

فانهارت أعصاب نساء الحى ، وأفلت منهن الزمام . فتعطرن
وتكحلن ، وارتدين خير الأثواب وأبهاها . وصرت كل واحدة
ريالا فضيا على طرف منديل يدها تدفعه للراقصة - نقطة - نعم -
سيذهبن إلى الفرح . فلئن أخفقن فى صيد الفحل لبنت من بناتهن
فلا أقل من فرجة ، وأكلة ، وموضوع دسم لحديث يطول أياما .
وهكذا . ما أقبل المغرب ، حتى تكذس أهل الحى فى
السرادق الواسع الذى قسم شطرين : قسم للرجال يتأوهون فيه
مع مغن بلدى ينوح على الأرعول ، وقسم للنساء يحملن فيه
إلى أجساد الراقصات تتلوى ، ويتهايمن ضاحكات للذكات
والأغاني الفاضحة .

ثم أقبل « مدبولى » فى موكب من الشجعان والمتعطلين
يسندونه ويحفون به حاملين طاقات الورد والريحان ، بعد أن
طافوا به حارات الحى وأزقته تزفه فرقة موسيقية نحاسية ، علت
بضجيجها على الغناء والأغاريد . وأمام بيت « زينات » لوح
« مدبولى » بذراعه يخرس كل صوت ، ثم صاح :
« سلام للعروس وجدة العروس ! » .

فردّد قوله الحاضرون . فقال :

« ألف ألف مرة ، ا . »

فدوت الموسيقى ، ودقت الطبول ، ونفخ الزامرون تحية
للعروس وجدة العروس . ثم صاح « مدبولي » :

« سلام لشجعان حيّ المدبح ! سلام لشجعان الحسينية !
وسلام لشجعان السبتية وطالون وباب الشعرية ! » .

فأجابه الجمع :

« ألف ألف مرة ، ا . »

موسيقى وتصايح .

فعوج « مدبولي » لاسته الحريية على رأسه ، ولوح بعصاه
الخيزرانية الرفيعة بزهو ، وصفق بيديه طويلا :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! وسلام يا ولد لضيوفي كلهم -

ألف ألف مرة ! وأنا وأنت » .

وللحال أفسح المحتشدون له مكانا يرقص فيه على النغمات المرحّة
متمايلا ، يمس جبهته بطرف عصاه آنا ، ثم يرتكز عليها ويدور
حولها راقصا آنا آخر . وتتابع أغاريد النساء تحييه ، وتحمّس
شجيع جاء مهثا ، فعوج لاسته هو الآخر على رأسه ، واندفع
داخل الحلقة يلوح بعصاه فوق الرؤوس وهو يتمايل أمام

«مدبولى» وتبعه غيره من الشجعان واحدا إثر واحد . وكان الحفل فى أوج ازدهاره وتأججه عندما انطلق بثأة صغير طويل حاد شقّ الصخب كسكين . وتبعه صغير آخر صارخ ، ثم ثالث ورابع كأنها إشارة متفق عليها بين رجال الشرطة ، لينقضوا على الجمع المنكسل دفعة واحدة ويطبقون عليه من كل جانب .

فهاج القوم وماجوا ، واستماتوا للإفلات من الجند ، وقد سها كل امرئ عن أخيه ، فكأنما هو فى يوم الحشر لاهٍ إلا عن الفوز بنجاته ، ولكن رجال الشرطة لم يتيحوا لهم فرصة ، ولا يسروا لهم منفذا ، بل أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وقد كَوَّنوا من أنفسهم سدا منيعا لاسبيل إلى اختراقه ضمَّ المحتفلين داخله : لف كل جندى ذراعه حول ذراع زميله ، وألقى بثقله على الجمع يضغط بكل قواه لينحصر الشجعان حيث هم لا يملكون فككا . وتربَّص خارج الدائرة جند آخرون يحمون بسلاحهم ظهور زملائهم المهاجمين ، ويردون من قد ينجح فى الهرب من الأشقياء المطلوبين .

فثار «مدبولى» مجنونا يرغى ويزبد ، وأعمل هراوته فى رؤوس المحيطين به بوحشية واستماتة كأنما يضرب بمعول بنيانا مرصوفا ليفتح ثغرة يفرّ منها . فعلا الصراخ ، وجرح من

جرح وصرع من صرع . ولكن ازداد الضغط من الخارج ،
وضاقت الحلقة به هو ورفاقه حتى وقفوا متكاتفين - مشلولين
لا يملكون حراكا ، فلم يشعروا إلا بأيديهم تُغَلّ بالقيود
الحديدية ، وقد انسلت بها بين مدار الجند ثلثة من الضباط .

وفي السيارة « اللورى » التى حملت العصابة حملا كالأغنام إلى
المركز ، ابتسم ضابط يجلس إلى جانب السائق وفرك كفيه
استبشارا ، وهو يقول له :

« صَيْدَ دَسَمِ والله - ستة من كبار الفتوات مرة واحدة » .
وفي داخل السيارة بَرَكَ الشُّجْعَانُ مطرقيْن مَخْذُولِيْن . وكان
« مدبولى » يعضّ بنانه عضا قاسيا يكاد يقتلعه ، يعضغه ، ويقضمه .
فرمقه جاره لحظة ، ثم همس فى أذنه مواسيا :

« شَدَّ حَيْلِكَ يَا أَخِي . السَّجَنُ لِلشُّجْعَانِ ! » .
فَهَزَّ « مدبولى » رأسه آسفا كاسف البال :
« وقعت - والسبب غلطة صغيرة ، ... وأشار بإصبعين يؤكد
« صغيرة - غلطة واحدة فقط فى حياتى ! » .

« وهى ؟ »

— « المأذون - تركته يعيش ! » .



رمال

جلست « أم حميدة » - العربية العجوز ذات اللسان اللاسع -
تجدل حبلا من ألياف النخيل ، وترنم بأغنية مرحة من أغاني
الصحراء ، وقد ربطت طرف الحبل بإصبع قدمها الكبيرة ،
وراحت تفرك وتضفر بهمة ومهارة .

كان الربيع قد أقبل ولمس كل شيء في قرية « محلة موسى »
بكفه السحرية يسمه بطابعه : الجوّ الصحو ، والسماء الصافية ،
والخضرة الشاملة ، وزقزقة العصافير المنهمكة في عملها ، وثغاء
الحملان والمعيز تتواثب حول أمهاتها . كما سكب نضارته
في وجنات العذارى وعيونهنّ البرّاقة ، وهنّ حاملات الجرار
يتمايلن بها دلالا في صف طويل نحو التّربة . وبث فتوته
في الشبان فتفجّروا قوّة وحيوية ، وتوثبت خطواتهم وهم يتبعون
العذارى عن كשב يضاحكونهنّ ويبادلونهنّ غزلا ساذجا .

فلا عجب أن شَعَرَت « أم حميدة » أيضا بوقع الربيع . فرفعت
عينين راقصتين إلى الشباب وهم يمزّون أمامها . وصاحت من

مكانها تحت النخلة :

«إلهى وأنت جاهى أهتكم جميعًا عن قريب بالزواج من
حبات قلوبكم ا، .

فتضاحكت الفتيات وتضرّجت منهنّ الوجنات وترنح الفتيان
سكارى بشبابهم ، وأجابوها رافعين أكتهم نحو السماء :
«إلهى يستجيب لدعائك يا خالتى «أم حميده ، يا أميرة ا، .
وضجّوا بضحك صاحب مرح - اشتركت فيه المرأة
وهى تتمم :

«ويلي منكم يا شياطين ا، .

وران عليها صمت ، هامت خلاله فى وادٍ من الذكريات
بعيد... سحيق... يوم كانت هى الأخرى ريانة العود ، تتضوع
حيوية ، ويصبغ الشباب خديها... يوم كانت تترع بمرح ينسكب
على كل من حولها... تطلق الضحكات رقراقة خالصة كحرير
الجداول من أعماق أعماق قلبها... وتخطر غزاله راقصة لاتكاد
قدمها تلسان الأرض... يوم كانت تشد حول خصرها الضامر
وشاحها الأحمر ، راية عُذريّتها ، وتتيه بالقرط الذى يترجّج من
أرنبه أنفها... يوم كانت تملأ الدنيا شدّوا... تقبل عيناها
والهتين الصحراء المترامية أمامها... والسماء المبسوطة فوقها...

وكتل الصخر المتناثرة - حتى الهواء كادت توسعه ضُمًّا وتقبيلا من
فرط نشوتها بالحياة ! ... أمّا عنزاتها الخمس فكانت تتحمل وحدها
نوبات ذلك الحب الجيَّاش الذى يفيض بصاحبها ، فتنقض عليها
تزهق أرواحها فى فورة حنانها ، وتخرم آذانها وتعلق فيها حلقات
من صفيح كالأقراط ، وتزين أعناقها بما تجمعه فى تجوالها من
خرزات زرق وحمى وخضر ، أو مزق من نسيج زاه .

وكان اسمها قبل أن تتزوج وتنجب « حميدة » : « شماء » -
تعيش وحدها فى خيمة من الخيش فى مضرب قبيلة « عرب
التراجمة » ، عند سفح الأهرام ، وكان كل رجل فى عشيرتها
- ابن السابعة وابن السبعين - يعتبر نفسه ولىّ أمر اليتيمة ذات
الجمال ... فيدس فى يد ربيبته بعض مكسبه أو ماأكله . ولم تكن
النسوة يكرهنها ، فهى زاهدة فى رجالهن جميعا ، لا يعطيها أحدهم
شيئا حتى تذهب إلى حرّيمه - زوجة أو أم أو أخت - وتشكرها
علانية . فخلصت سمعتها من كل شائبة ، وزَها اسمها فى الجيرة ،
واشتهرت به المليحة أم خنجر ، إشارة إلى تمنطقها بسكين تسن
حدها على الصخرة التى تجلس عايتها كل ليلة أمام خيمتها بعد أن
تبّيت عنزاتها ... وزاد من علو قدرها بين قومها صوت رخيم ،
وترنم فى انطلاق على السجية بأغنيات رقيقة كالشعر : تنظمها

للمناسبة القائمة . فإذا كان هناك عرس تغنّت باسم العروس
وجمالها وحسبها ونسبها ، وهى ترقص على دق الدفوف بسيف
تشهره تناوح به فوق رأسها ، أو وهى منطلقة فى سباق على ظهور
الإبل مع فتیان القبيلة فى استعراض على ضوء القناديل .

ويوم جاءها « سلطان ، الفتى الترجمان ... كانت جالسة تحب
عنزاتها عند الغروب ، عندما لمحتة مقبلا عليها يحمل سقفا من
سعف النخيل وضعه دون كلام ولا سلام عند قدميها . وحلّ
طرف عمامته الذى يتلثم به ، ووقف ينتظر .

فرفعت « شماء ، إليه عيني مَها تسيحان فى أرجاء وجهه ،
تأملان سمرته ، وأنفه الأشم ، وعينيهِ النفاذتين ، وطالع الحسن
يكاد يفلق ذقنه كأنما ختم الله سبحانه عليه بإصبع بعد أن فرغ
من خلقه . وانحدرت نظرتها إلى كتفيه وصدره العريض ،
تنفض عضلاته فتية حية تحت جلبابه ، وقد رق نسيجه وذهب
لونه . وعند خصره تسمر بصرها ، وعلق بالحزام الجلدى
العريض الذى يشده يزيد ضمورا وتدلى منه غدارتان .
أما قدماه فقد ثبتتا فى الأرض كأنهما جذعا شجرة عتيدة ، وقد
انتعل خفا خشنا من وبر الإبل .

وسألها « سلطان ، عندما رآها تسبل جفنيها : «أى « شماء ،

أتقبلينى زوجاً ؟ .

فاندفع الدم يلهب عنقها ووجنتها وإن لم تبدر منها بادرة .
وقامت إلى السفط الذى جلبه معه تكشف عنه غطاءه ، واغترفت
حفنة من الشعير الذى يملأه . ثم تركته ينهمر ثانية من بين أناملها
وهى تتأمله باسمة . وأكلت بعض حببات من هدية التمر المجفف ،
تلوكها متمهلة مستمرئة .

ثم نهضت يبطء وواجهته ممشوقة الممد ، ناهدة الصدر ، تضم
ذراعيها على كنزيه النافرين ضئيلة كأنما تهيب بهما أن يهبطا شيئاً
ويخففا من شموخهما . وعندما لمحت يرقبها والهاً لا تفوته منها حركة
ولا التفاته ، تضطرم فى أعماق عينيه السوداوين نار وئيدة ،
انكفأت على عنزاتها تهشها وتبيتها . وغمغمت وهى تحتضن
«برنية، الحليب :

« قبلتك زوجاً يا سلطان ! » .

فانشق وجهه عن ابتسامة تفيض سعادة غرقت فيها قسماته
كلها ؛ ومال نحوها يقبض على كتفها براحتيه الكبيرتين فى خشونة-
لهفة . فخدجته غصبي ، وأطاحت بلطمة راحتيه بعيداً عنها ،
وهى تقول :

« مرحى ! مرحى ! أو ملكتنى بعد يا بن عبد الله ؟ ... فطأطأ

« سلطان » رأسه ، وهتف يسترضيها :

« ويحيى - أغضبتك ؟ أى شئاً - السماح ! » .

ثم أردف ونظرتة بعيدة : « لو علمت ما فعل الهوى بحشاي
لعذرت ... سأحت ! » .

فتلاعبت على شفيتها ابتسامة عضتها بسرعة ، وهمست :
« سأحتك ! » .

فاختطف كفها يمزغ عليها وجهه ... يمسحه بها ... يتشممها ...
يلثمها ... يريح عليها صدغه . فتركها « شئاً » له مصطربة تنو إليه
بتحنان ، حتى إذا هداً شيئاً ، سحبها منه مترققة ، وضمتها إلى صدرها
وليدة غالية ، ودارت على عقبيها ، وسارت عنه تمشى الهوينى !
فتبعها دون أن يسألها - غير مهتم أن يعرف أين يذهب -
أسيراً ، عبداً يلتذ بعبوديته .

أوغلت مجدّة في السير ، حتى تركت مضارب خيام قبيلتهم
وراء ظهرها . وصعدت تلاً ، ثم آخر ، وآخر . وجأة ، كأنما حل
عقالها ، أو انفجر مرجل يغلي داخلها ، انطلقت تعدو وتعدو سهماً
مارقا ، لا تتباطأ ولا تتعثر ، يضرب الهواء وجنتيها ويبعث شعرها
بطيش - بجنون ، فما توقفت وما التفت وراءها مرة . حتى إذا
لاحت الأهرام الثلاثة راسخة كأنما تنبت من جوف الأرض

وتتغلغل جذوعها متفرعة في قلب الصحراء ، خرت « شماء » على
ركبتها تلهث بشفاة مفترة وعيون متألثة براقه ، كأنما هوت
نجمتان في حدقتها ، تتم بصلاة خرساء .

فارتدى « سلطان » يركع أمامها ، ويفعل دون وعي مثلما
تفعل ... ظلّ ظليل .

وأطل القمر بخفر متردداً من خلف قمة الهرم الأصغر . فلما
استهواه منظر العاشقين ، بزغ بجرأة يقتحم السحاب ينفذه عنه ،
وبسط رداءه الفضى عليهما وعلى السكون كله من أجلهما ، ثم راح
يرقبهما مبتسماً .

فرفع الحبيبان وجهيهما إليه في صمت - تبذل . ثم أرخت
« شماء » عينيها ، وعضت شفتها ، وقد كشف خلوتها ثالث .
فقامت تضرب عن جلبابها ذرات الرمل ، وتللم شعرها تحت
خمارها تعقسه عليه .

فقال « سلطان » في ابتهاال ، وهو متشبث بمكانه : « لنبق ...
بربك » شماء « لنبق ... هنا ... بعض الوقت ! » .

وأدار ناظريه حوله بنشواق متعبدا ، وعيناه حالمتان كأنما
لم يقع بصره من قبل على صحراء ورمال ... كأنما يراها
أول مرة ...

فتأملتہ ، شماء ، لحظة ، ويداها على خاصرتها ، ثم ألقت
برأسها إلى الخلف ، وانفجرت ضاحكة تقهقه :

« قم ... قم يا مفتون ، يا غلبان اقم - أم تراك نسيت الخطوة
الثانية : عليك بأهلى تخطبني منهم كبنات البادية الحرائر !...
فزَمَ الفتى ما بين حاجبيه يجهد فكره ... هي يتيمة ... فسألها
متحيراً يتخير ألفاظه :

« أهلك ؟ أعرف - أعنى ... أنا ... أنا ... » .
فقاطعتة تهز رأسها متخابئة :

« إي والله يا فتى العرب - أهلى ! ألا تعرفهم ؟ أفراد قبيلتي -
فهمت ؟ كبيرهم وصغيرهم ... ستخطبني منهم علانية ! » .
وجأة انقضت عليه ، واختطففت عمامته عن رأسه ودسستها بين
نهديها بسرعة ، ثم أكبت ، غزالة شرودا ، تقفز نافرة ، تضم
ساقها إلى بطنها ، من فوق الحجارة والتلال والفجوات التي
تعترض طريقها ، وهي تصيح به :
« الحق بي - تأخذها وتأخذني ! » .

فهبّ سلطان ، ليثاً في إثر إلفه ، وقد تقوست كتفاه ، ولملت
عيناه ، يضرب منخراه المرهفان الهواء ، فرساً أصيلاً مضطرباً .
وأمسك ذيل جلبابه بين أسنانه ، وانقضّ يطوى ما يفرقه من

مسافة عن حبيته . واسكن « شماء » هبطت جوانب المنحدر
كالشهاب المنطلق - إلى السفح ، حيث الخيام .

فتوقف « سلطان » يرقبها بإعزاز نفورًا ، ثم عبس
عندما تذكر شرطها . فبسط ذراعيه كالطائر ، وألقى بنفسه خلفها
دون ترو . فتدحرج متكورًا من على كدمعة كبيرة على خد
الجل من فرط ما أضحكه منظر العاشق .

واستقبلته ضحكات « شماء » وقد وقفت تنتظره ، ويدها على
خاصرتيها تتمايل لا تملك استمساكا .

فاستلقى « سلطان » على ظهره مكانه يرمقها ، وشفته ناتئة
كطفل غاضب ، وشعره الغزير الحالك مهتل على جبينه يضاف
عليه وسامة صبيانية محببة .

فاضطرب قلب الفتاة ، وعربد في صدرها . فمدت - تخفي
هيامها - قدما صغيرة ، وعفرت قدمه بذرات من الرمل وهي
تقول مداعبة :

« قم .. هيا ... قم يا فارسي الجميل ! » .

فتشبث نظر « سلطان » بالقدم الوردية الخافية وخلخالها
الفضي ذي الجلاجل .

— « قم .. هيا ... هيا الحق بي ! » .

وقبل أن تستدير لتواصل السباق ، قام «سلطان» على مرفقيه . وفي مثل لمح البصر جذبها من قدمها . فهوت على صدره تغرغر بصرخة حزينة ، يمامة تعثرت في شبكة .

وضمها «سلطان» بوحشية ، كأنما ينوى سحق ضلوعها ليصل إلى روحها الطلقة يخضعها بين ذراعيه . وهباً على ركبتيه والأسيرة تملص في أحضانه ، يبحث بشفتيه عن شفتيها . وضغط كفتيها ... وزاد الضغط ... إلى الخلف ... وهي تقاومه ... تقاتله ... مستمينة تضرب برأسها يمينا وشمالا ، وقد أخفت شفتيها بين أسنانها .

وجأة شهق ، وانخذلت ذراعاها ، وارتمت إلى جانب والدماء تنبثق من كفه . فقفزت «شمتاء» عن الأرض ترمقه ، وهي تمسح خنجرها بعمامة التي أخرجتها من عبّها ، ثم ألقتها إليه ماطخة بدمائه . ودست خنجرها ثانية مكانه ، تربّته ... ثم سارت عن فتاهها - سارت ولا يدرى صدرها ما يجيش في قابها ، ولا يقف جفنها على ما تختلج به عينها - سارت ... عائدة ... بمشوقة ... يطاول رأسها السماء ، دون أن تنبس بحرف .

لم يكن جرحه عميقا ولا خطيرا . ولم تلبث الدماء أن توقفت من تلقاء نفسها . فبال «سلطان» طرف عمامته بلعابه ، ومسح

على الجرح مسحا خفيفا ، ثم قام وعيناه على الشيخ الذى يتعد عنه يلفه الظلام .

وفى خيمة شيخ القبيلة دلف « سلطان » وأقرأ المجتمعين السلام . فلما فسحوا له مكانا بينهم ودعوه لمجلسهم لم يعرهم التفاتا . وصفق الشيخ يطلب قهوة للضيف ، وهو يتمم بكلمات الترحاب والإكبار المحفوظة . فبادره « سلطان » - واقفا - بطلبه ... يد « شماء » .

فابتسم الشيخ ، وربت فروة خروف جنبه ، وقال :
« تعال ... اجلس يا بنى ... » شماء ، بنتنا ، وأنت ابننا ، والله - بإذنه - الموفق ! » .

فلم يتحرك « سلطان » من مكانه ، وزاد على طلبه كلمات خرجت من بين أسنانه فحيحا ، والفتى يجاهد ببسالة فورة عواطفه :
« أريدها ... الليلة ! » .

قفغر شيخ القبيلة فاه ، ونظر إلى الرجال حوله يشاورهم فى صمت ؛ ثم تنحنح وحك قفاه طويلا ، ثم سعل وبصق خلفه ، ثم تشاغل لحظة بحجيات سبخته ، ثم تساءل :

« الليلة ؟ الليلة ؟ » .

فرّد « سلطان » :

« الليلة - الليلة ! » .

فهز الشيخ كتفيه وراح يتهمه بعصية ، وهو يعلم في أعماقه أنه أمام قصة غرام مشبوب . عليه بوقاره أن يدير دفتها كربّان السفينة الحذر بين أمواج المشاعر المتلاطمة الفائرة إلى شاطئ الأمان .

فتنحّج مرة ثانية ، وسأله :

« وهل خطبتَ البنت إلى نفسها ؟ » .

فأوما « سلطان » بالإيجاب .

— « ورضيتُ بك حليلاً ؟ » .

مرة ثانية ، إيماءة مقتضبة .

فارتفع حاجبا الشيخ وكتفاه ثم هبطا كأنما يقول : « انتهينا » .

وعاد يسأل :

« ومهر البنت ؟ » .

فربت « سلطان » صدره ، ثم دس يده في عبّ ، وأخرج ورقة ذات خمسة جنّيات - دفع بها إلى الشيخ ، وتراجع خطوتين يقول :

« وخيمتي وبعيري وناقتي وحمارى - كلها شركة معها ، أكتب

وأختم على ذلك ! » .

فقهلت أسارير الشيخ ، وهز رأسه رضا ، وصاح :
« علينا إذن بالبنت - نسألها ونسمع جوابها بأذاننا ، ونشهد
على قبولها إياك » .

وقام شيخ القبيلة ، وقام معه وقوران آخران من حوله ،
وساروا جميعا صوب خيمة « شماء » و « سلطان » يتابعهم ببصره .
فلما عادوا ، كانت « شماء » معهم في جمع من النسوة يطلقن
أغاريد حادة بهيجة ويهللن ويصفقن فرحات ؛ فرفع شيخ القبيلة
ذراعيه أمامه ، فساد سكون ؛ وتعلقت العيون بشفتيه وهو يقول
موجّها كلامه للعروس :

« أى « سلطان » ؛ لقد قبلتك « شماء » لنفسها بعلا ولكن . . .
وحكّ لحيته التى تحاكي منشور ملح وفلفل :
« ولكن . . . أخشى أن يقول الناس : شبّب « سلطان »
بـ « شماء » حتى بنى بها ليلة خطبتها . أى بُنى ... » .
وسار إليه ، ووضع يده على كتفه بحنان :
« بُنى - ألا تخشى معى على سمعة البنت ؟ هلا أفصحت لماذا
تصرّ على ... الليلة ؟ » .

فنزح « سلطان » عن كتفه عمامته التى ضمدها بها . فتطاوالت
الأعناق ، وترامت الأبصار ، ترمق الجرح القانى بدهشة وفضول .

وأشار الفتى إلى كتفه وغمغم :
« أريدها لتداوى جرحا ... جرحا ! » .
والفتى إلى « شتاء » ، وابتسم .
فأرخت جفניה تبسم ، وخذاها يلتهبان .
فهلل الرجال وكبروا ، وغرّدت النساء ، وقد تكشف لهم
الامر ... وفي الحال جاءت النسوة بطسوت وصفائح فارغة قلبها
على حلوقها ، وقبعن أمامها متحلقات يعملن فيها كفوفهن طبلا
مدويا رنانا ، على حين اندفعت صبايا من أتراب « شتاء » يرقصن
كظباء سكرى ، كل واحدة ممسكة بشيء تهزه فوق رأسها : هذه
بعضا أيها ، وتلك بسيف جدّها ، وثالثة بسوط عمها ، وأخرى
تلوح بعمامة خطيبها .
وانخرطت عجائز هُثم عجاف يرددن أنشودة البادية القديمة
قَدَم الخليفة :

آيه	بنت العرب
رايه	هذا الشرف
تحميها	بالروح
تفديها	بالقلب
يا بابا	وما تقول

«سلطان، عباءته في صمت بجناحين هائلين ، فمشت
«شَّمَاء، إليه ، واستكانت تحت جناحه .
وأخذها وذهب بها - تلك الليلة .

* * *

هزّت «أم حميده ، رأسها في أسي ، تتمصص شفيتها لذكريات
عزيزة ، وأكبّت تم جدل الحبل الذي بين يديها المعروقتين
وهي تنهد :

«هيه ... زمن ا»

جَنِّ مَصَوِّر

لطمته أُمّه على نَحْذِهِ ، وصاحت به غَضْبِي :

« أَصْعِدْ إِلَى حَجَرَتِكَ فَوْرًا لَتَنَامِ ! » .

فلما رَفَعَ إِلَيْهَا عَيْنَيْنِ مُسْتَدِيرَتَيْنِ تَتَقَاتَلُ فِي أَعْمَاقِهِمَا عَفْرَتُهُ

وَسَدَاجَةٌ ، وَهَمْهِمٌ بِصَوْتٍ صَغِيرٍ :

« أُمِّي ... » .

... لَوَّحَتْ فِي وَجْهِهِ بِإَصْبَعٍ تَهْزُهُ مَهْدَدَةٌ ، وَقَاطَعَتُهُ وَهِيَ تَزِمُ

شَفْتَيْهَا فِي خَطِّ رَفِيعٍ صَارِمٍ :

« كُنِّي ! لَا أُرِيدُ سَمَاعَ كُلِّهِ أُخْرَى مِنْكَ ! اذْهَبْ وَنَمِ ! » .

فَدَارَ عَلَى عَقْبِيهِ بِرَأْسٍ مَطَّاطٍ ، وَيدَاهُ مُتَشَابِكَتَانِ وَرَاءَ

ظَهْرِهِ ، وَسَارَ شَحِيحًا ... خَطَاوَةٌ ... خَطَوَتَيْنِ ... نَحْوَ السَّلَمِ . وَجَفَاةٌ

رَفَعَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ ، وَحَكَ حِذَاءَهَا بِسُرْوَالِهِ فِي شِدَّةٍ . فَتَنَاثَرَ

الطِّينُ الْمُتَجَمِّدُ عَلَيْهِ فَتَاتَا فَوْقَ السَّجَادَةِ الْعَجْمِيَّةِ الثَّمِينَةِ . فَصَرَخَتْ

أُمّه مُلْتَاعَةً :

« السَّجَادَةُ ... يَا وَلَدُ ! » .

ثم تمت ، وقد انخذلت ذراعاها إلى جانبها في استسلام
يائس :

— « ما حيلتى معك ؟ » .

ونظرت إلى السقف في ضراعة صامته ، شهيدة في اضطراب .
فأكب « سوسو » جذلان ينهب الدرجات مثني مثني .
وعندما وصل إلى أعلى السلم امتطى الدرايزين كالحصان ، وانزلق
هابطا في قوة وسرعة خاطفة ، وهو يطلق صرخات حادة مزعجة
كزنوج الغاب عند النزال ... !

فهرولت أمه ومعها أبوه من حجرة المكتبة إلى أسفل
الدرج ، وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتنز ، وقد حملت
المغرفة مشرعة في يدها كأنما تهاجم عدوا ، ونقر « عم دسوقي »
- البستاني العجوز - زجاج الباب الخارجى ، وراح يلوح يديه
من خلفه في اضطراب ، مستفهما عن سر الصرخات التى طرقت
سمعه وهو يسقى الأزهار والورود فى الشرفة .

أما هو ، فقد سقط مستلقيا على ظهره ، وهبّ واقفا من
فوره كالكرة من المطاط ، وأخذ يضرب نخذه ضربات خفafa ،
ويرمى الوجوه الواجمة المحدقة به بابتسامة عريضة شقت وجهه .
وقبل أن يفيق أحد من الكبار المزعجين الذين جمد الدم



وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتر ، وقد حنت المفردة مشرعة في يدها كأنها تهاجم عدوا

فى عروقهم ، أكب مرة ثانية يطوى درجات السلم طيا ، يلوذ
بمحجرتة فى الطبقة العليا .

فتابعه الجميع بعيونهم مغيظين فى صمت . ماذا هناك يستطيع
المرء أن يفعله حىال جن فى السابعة من عمره ؟ لا شىء - طبعاً .
تمصصت الشفاه ريقها قنوطا ، واهتزت الرؤوس فى أسف ، وعاد
كل واحد حيث كان قبل غارة زنجى الغاب . . .

وكان أبواه عصر ذلك اليوم يزعمان زيارة أصدقاء لهما .
فنادى الأب الطاهية وأبلغها أنه ربما امتد بهما السهر ، فهو يوصيها
أن تفتح عينها جيدا ، وتتنظر المرية الجديدة التى سيرسلها
المختم . ثم خرج وزوجه . ولم يلبث « عم دسوقى » أيضا أن
أطل برأسه فى المطبخ ، يتشمم الهواء كالقط الجائع ، قبل أن يعلن
ميعاد عودته إلى كوخه .

فدست الطاهية بين راحتيه الحشتين رغيفا منتفخا بما فى قلبه
من أصابع محشو الكرنب وقطع اللحم . فتقهقر « عم دسوقى » ،
بغنيمة سعيدا هائنا ، يطبق عليها بأصابع عجاف من حديد ، كجذوع
شجرة هرمة مستميتة فى الأرض .

فابتسمت « أم محمد » وهى تشعر برضاء عظيم عن نفسها
وحالها . كل شىء يؤكل فى البيت تحت يدها . فمعها مفتاح المخزن ،

تغرف من السمن ما تشاء ، فتطهو بربعه وتعيّ الثلاثة الأرباع في
علبة ، لتأخذها هدية لبنتها العروس يوم عطلتها الأسبوعية .
ولا يقتصر ما تدبره ، وتأخذه لـ « نفيسة » على السمن وحده ،
بل يشمل من الأرز والدقيق والبصل الشيء الكثير - حتى ملح
الطعام له علبة خاصة تنتقص فيها كل يوم حفنة . إنها جدٌ سعيدة
بالخدمة في هذا البيت . فالأب مشغول جدًا - دائماً مشغول ،
والأم منطوية على نفسها . تهمس في حديثها ويقفز ذعر إلى عينيها
عند ما تتحدث إلى الخدم . بلهاء ... صنم ... هزت « أم محمد »
كتفها بقلّة اكتراث وعدم احترام ، عند ما خطرت سيدتها على
بالها . على كل حال هي أحسن من غيرها . فهناك سيدات يدسسن
أنوفهن في كل شأن من شئون البيت والمطبخ . كم ملعقة من السمن
أخذت ؟ كم بصلة ؟ كم كوباً من الأرز ؟ أف ... أعوذ بالله الوّحت
« أم محمد » بيديها في الهواء بحركة لاشعورية تطرد عنها شبح ربّات
البيوت أولئك ، النابهات الناصحات المتعبات .

ثم ملأت إبريق الشاي ووضعت على موقد الغاز ليغلي ،
وجلست ترقبه بسرور وتتنهد رضا . هي دائماً كريمة مع خدام
البيت ، تدس لهم الطعام دسا فيتنافسون في مساعدتها في غسل
الصحون وأواني الطهو ومسح بلاط المطبخ . وهم يأتون إليها

بمشاكلهم وخلافتهم التي تضع لها حدا كلمتها الفاصلة . لذلك هي
لا تدري لم خرجوا كلهم واحدا إثر الآخر هذا الشهر ، حتى لم
يبق في الدار سواها وسوى « عم دسوقي » البُستاني . اخذ الله على
كل حال - ستحضر الليلة المربية الجديدة . وإلا كان عليها أن تطعم
الشيطان الصغير . وتسهر بجانب فراشه حتى ينام ، وبعد ذلك . . .
هنا أخرجهما « الشيطان الصغير » نفسه من تأملاتها ، وقد تسلل إلى
المطبخ على أطراف قدميه الخافيتين ، وفاجأها من خلفها بصرخة
نكراء دلقت كوب الشاي الذي كانت تشربه على صدرها . فهبت
تدفّ يديها تستجاب برداً للحرارة التي تلسعها ، وتدور حول
نفسها مولولة . والضحكات المرححة ، رنين جلاجل ، تزفها . فلما
ارتمت لأهثة على مقعدها ، تبصق في عها ، وتستعيز بالله من كل
شيطان رجيم . لمس « سوسو » ذراعها بكفه الصغيرة القدرة ،
وغغم ورأسه مطأطع وشفته ناتئة :

« خالتي أم محمد - غضبانة أنت مني ؟ »

فتأملته المرأة برهة ، وبقايا شاي تتساقط قطرات من ذقنها ،
ثم انفجرت ضاحكة :

« وما الفائدة يا بني ؟ تعال - تعال هنا ! »

وربتت حجرها السمين المريح . فتسلقه « سوسو » كما يتسلق

المرء هضبة ، ثم أسند ظهره إلى مخدة نهدىها الكبيرين ، وقال وهو
يدس رأسه تحت جناحها كالفرخ الخائف :

« قولى لى حكاية ! »

— « قل لى أنت أولا - هل شربت اللبن ؟ »

— « لا - لا أريد ! »

— « قالت أمك لا بد من شربك اللبن . وأكلك قطعة
الكعكة ، قبل النوم ! »

فاحتضنها « سوسو » بكل قواه ، حتى إذا عجزت يداه عن
أن تلتقيا حول عنقها ، قبّلها فى رقبتها ذات الثنيات قبلة
فرقت ، وقال :

« خالى أم محمد - أتحنينى ؟ »

فضمته فى صمت ضمة حملتها الجواب . فعض « سوسو » شفته
كيلا يتأوه ، وهو يشعر بضلوعه تنقصف . وعالج ابتسامة ممتدة
عندما قالت له :

« والنبي أحبك - موت ! »

— « إذن اشربى أنت اللبن وكلى الكعكة ، وأعطينى أنا كوبا

من الشاي الأسود الثقيل ! »

فحكّت المرأة رأسها برهة ، ورمقت الكعكة الدسمة الغارقة

في الشراب والسكر ، ثم قالت تزدرد ريقها الجارى :
« اتفقنا ! »

لكنها أردفت بسرعة ، وهى تهز أمام عينيه إحدى أصابع
الموز التى نبتت فى كفها الضخمة :
« لكن - ليسكن فى معلومك ... هذه المرة فقط ! من
أجل عيونك ! »

فلم ينتظر « سوسو » ليسمع أكثر ... اختطف فى سرعة البرق
كوب الشاي من فوق المنضدة ، وهرب به إلى ركن قبل أن تغير
« أم محمد » فكرها ، وراح يرشف منه الرشفة تلو الرشفة بصوت
منفر كالكبار الذين راقبهم مرارا وتكرارا بعيون واعية ،
وطالما هفا أن يقلدهم . ولف مزقة من جريدة كاللفافة ينفث
دخانها الوهمى بين الفترة والفترة ، وهو يلوح بيديه يتحدث إلى
الجدران والمقاعد عن الأولاد ... وخلفة الأولاد ... وتعب
الأولاد . ويهز رأسه بوقار - كما يفعل « عم دسوقي » - ويقص
كيف أنه اضطر إلى بيع معطفه فى زمهرير الشتاء لينفق ثمنه على
زوجته وهى تضع وليدها السابع ... ثم كيف ...

وجذبه صوت « أم محمد » من دنياه ، وهى تعلن بحزم :
« حان ميعاد نومك . هيا يا « سوسو » ! »

وقبل أن ينتحل عذرا يتملص به مما قَدَّر له ، أنقضت عليه ، وحملته حملا بين ذراعيها . فاستكان في استسلام ، لكنه قال متذللا ، وهي تهم بالخروج من المطبخ :

« خالتي أم محمد - مارأيك لو جلست بي على ركبتك هنا حيث الدفء ... والجو ظريف ... فتقصي عليَّ حكاية حتى أنام - وأعدك وعد شرف أن أنام بسرعة - ثم لك بعد ذلك أن تحمليني إلى فراشي ! »

— « وهو كذلك ! »

وعادت به « أم محمد » ، ثانية إلى المطبخ ، وجلست على مقعدها ، وراحت تمسح على شعره الغزير الناعم ، وتغمغم في صوت راتب :

« كان ما كان ، في سابق العصر والأوان ، لا يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام : كان هناك واحد غني - ولا غنى إلا الله - عنده بنت ... قمر ... يشوفها العاقل يحن ... ويشوفها العابد يحن ... ويشوفها ... »

وأغمض « سوسو » عينيه متناوما ، لكنه راح يعدّ في سره ألعابه وعجلاته وكراته ، حتى لا يغشاه النوم حقا .

واسترسلت « أم محمد » ، تحكي له كيف أن ابن الإسكافي دون

غيره وقع من نفس البنت القمر موقعا حسنا ، وكيف أن أباهما
غضب عليها ، وسجنها في سرداب قصره الذى بنى جدرانہ وسقفه
من زجاج ، حتى يستطيع أن يزيح سجادة حجرته ويطل عليها يرى
ما تفعل ... ثم كيف أن الحبيب الملتاع تنكّر في زى جارية
اشتراها الأب الغافل ووكّل إليها - الحبيب المتخفى - خدمة ابنته
المسجونة ... وهكذا - وفغرت « أم محمد » فاهما إلى أقصاه
كالبالوعة - وهكذا ... عاش الحبيبان في الثبات ... في ... في
الثبات والنبات ... وخلفا ... و ... وخلفا ... صديانا ... و ...

وبطؤ صوت « أم محمد » شيئا فشيئا ، ثم انقطع وقد ثقل تنفسها
وعلا شخيرها .

ففتح « سوسو » عينا حذرة تبرق ، وراح يترقب . حتى إذا
ثبت لديه نومها ، انزلق بخفة الفأر من فوق حجرها ، وجاء بمقعد
آخر وضعه أمامها ، ثم حمل قدميها ، قدما قدما ، برفق متمهلا ،
ووضعها عليه حتى تستريح المرأة في استلقائها فيعمق إغفاؤها .
وبعد ذلك تسلل خارجا من المطبخ ، وأغلقه خلفه بالمفتاح .

وانفلت إلى شرفة البيت الخارجية ، وجلس على السلم الرخامى
وكفه على خده . ولم يطل به الانتظار ، فلم تلبث امرأة تلتفع
بملاءة سوداء أن دفعت باب الحديقة ودخلت .

وكانت الشمس قد غابت وراء تلال الرمال في تلك البقعة
النائية من « المطرية » وخيمت على الكون غبشة كسته كآبة
ورغبة في الفترة القصيرة حين الغروب ، وقبل أن تطل النجوم
من سماءها .

وانكمش « سوسو » على نفسه بمسكة ، وأذناه مرهفتان ،
وعينه وراء أهدابها ترقبان كل خطوة تخطوها المريية الجديدة
مترددة تتلفت حولها . حتى إذا وضعت قدمها على أول السلم ،
فتعثرت في جسم لين ، أجفلت وضربت صدرها بكفها تهتف :

— « بسم الله الرحمن الرحيم - من أنت ؟ »

فسلط « سوسو » عليها عينيه المستديرتين مشحونتين بكل
سذاجة الدنيا ، وهمس وشفته تتراقص كأنما سيديكي :

— « أنا ... أنا « بيومي » الخدام ! »

فابتسمت له - وكانت زنجية وجهها سمح - ابتسامة ضاءت
كل قسماتها ، وسألته مترفقة :

— « ولم تجاس هنا في البرد يا بني ؟ »

— « إني خائف - فأنا وحدي هنا في هذا ... » ومط عنقه

يتناول نحوها : « في هذا البيت ... الكبير ... المسكون ،

فعبست المرأة ورددت :

— «بيت مسكون؟ اللهم احفظنا!»

وجلست إلى جانبه تحل نقابها، و«سوسو» يتأملها ويعجب
لكثرة الأحجبة والأقراط الفضية والذهبية ذات الجلاجل
والخرز الأزرق التي تزين أذنيها وأنفها وعصابتها رأسها، ولكن
خاتما كبيرا من النحاس الأحمر له مكان الفص منه قرص مستدير
عليه نقوش عربية ورموز هو الذي تسمر عليه بصر «سوسو» .
وكانت المرأة تضعه حول سبابتها . فأشار إليه «سوسو» وتساءل :
— «ما هذا يا خالتي؟»

فشهقت المرأة، وسحبت يدها بسرعة بعيدا تخفيها بنهارها،
وتتمتم والذعر يملأ مشاعرهما :

— «دستور يا أسيادي ! دستور يا أسيادي ! العفو ! العفو !
طفل صغير غريب ، السماح . . . السماح !»

وبصقت خلفها بصقة وأمامها خمس بصقات ، وربت
الأرض إلى جانبها تستسمح أناسا مستخفين، وقد ركعت على ركبتيها
كأنما تصلي ، وراحت تطوح رأسها يمينا وشمالا كمن يسبحون لله في
حلقة ذكر . ثم ثأبت بصوت عال تناوبا طويلا عويضا تقلصت
معه عضلات وجهها ، وكاد شدقاها يتمزعان من عنف ما تجاهد .
وفجأة هدأت ونظرت حولها تبسمل وتحوقل ، وتمسح وجهها

براحتها ، كأنما تفيق على الفور من نوم . ومالت على «سوسو» تهمس :

« مرة ثانية يابني لا تسأل عن شيء » يخصهم ، ! .
فاتسعت حدقتا «سوسو» دهشة وهو يسأل في إصرار :
« من هم الذين لا يجب أن أسأل عن شيء » يخصهم ، ؟ .
فحفظت عينا الزنجية ، وتلفتت حوالها مضطربة مترقبة ،
تقول بصوت يرتجف :

« دستور يا أسيادي - دستوركم ا دستور ياسيدي
« أبو لحاف » ا دستور ياستي » أم غرارة ، ا دستور
يا «قطامش» يا ملك الجن ... يا ... ! .

وطرق سمع «سوسو» حينئذ سعال خشن متقطع أتاه من
داخل البيت ؛ فعرف أن جده قد استيقظ ؛ هو دائما ينام من
بعد الغداء إلى الغروب . سيطلب الآن كوبا من الليمون
الساخن الذي يشربه الساعة السابعة مساء بالضبط . وسيسب
وسيلعن عندما لا تجيبه «أم محمد» إلى طلبه سريعا ؛ ولكن -
ما حيلتها وباب المطبخ مغلق عليها ؟

وعلا السعال واقترب ؛ ورأى «سوسو» بعين خياله جده
يهبط السلم من الدور العلوى إلى الردهة ، يدور ويلف فيها مناديا ؛

فهبّ من جنب المرأة . وقفز يعبر الشرفة إلى داخل البيت : فتبعته
المرأة دون سؤال ولا جواب .

وهناك ، في الظلمة المطبقة ، وظلال قائمة تتراقص على الجدران .
رأياه : شيخا ضامر الجسم ، حافي القدمين ، يرتدى جلبابا فضفاضا
أبيض ، ويدس رأسه حتى أذنيه في قلنسوة صوفية يترجح في
أعلاها زرّ في نهايته كرة صغيرة من الصوف .

ولم يكن جدّ « سوسو » قد أضاع الردهة حيث وقف ينفث حُمَمَ
غضبه على كل خلق الله بلا استثناء . فارتقى « سوسو » على المرأة يختبئ
فيها : فأحاطت الزنجية كتفيه بذراعيها في تحنان ، وهمست :
« مم تخاف ؟ عفريت هو ؟ » .

فأعمل « سوسو » عقله سريعا ؛ وأجاب دون تردد :

« نعم ... نعم ... هو عفريت ! عفريت والله العظيم ! شيخ
صاحب البيت السابق الذي ... الذي خنقه اللصوص في فراشه ! » .
فاصطكت أسنان الزنجية من شدّة الرعب ، وتقهقرت
ترتجف وتتحسس مواقع قدميها :

« عفريت ؟ عفريت ؟ نهار أسود ! والله ... إنّ بدنى ... ليس

خالصا ! دستور ... دستور يا أسيادى ! » .

وصاح الشيخ وهو يزحف نحوهما :

« سوسو ؟ أهذا أنت ؟ » .

فهمس « سوسو » وهو متعلق بالزنجية :

« أسمعيني ؟ أسمعينه ينادى ابنه ؟ أكبر الظن أنا سترى

الآن عفريتاً صغيراً يخرج إليه ! » .

فلم تجب المسكينة إلا بغرغرة من حلقها عميقة كالجلل المدعور :

وتحشرجت أنفاسها واتسع منخرانها : « أيقظ الصباح أم محمد ، في

مطبخها . فهبت تعالج فتح الباب قسراً . وزاد ذلك الطين بلة ، إذ

تسمرت عينا الزنجية الجاحظتان على كرة الباب التي تتحرك ووحدها بشدة

وعنف . وتراقصت أمامها شياطين زرق وحمر وخضر لا حصر لها .

وصرخ « سوسو » - ليزيد الجؤ رهبة - صرخة مدوية من

صرخاته الشهيرة ، قف لها شعر المرأة المسكينة : ثم أشار

« سوسو » وهو يرتجى عليها يحتمى بها - أشار إلى « أم محمد » بثيابها

الفضفاضة البيضاء ، وقد خرجت إلى الحديقة بعد أن استعصى

عليها باب المطبخ ، وصعدت إلى الشرفة تطرق زجاجها ليفتح لها

من الداخل ... وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمل أعصاب الزنجية

المهارة ، فهوت على ركبتها تعول وتنشج بعصبية واهتياج .

فانتهر « سوسو » فرصة اقتراب أذنها منه ، وهمس فيها :

« أترين هذه الجنية السمينة ؟ هي أمى - كانت طاهية ، فانفجر

فيها موقد الغاز فماتت محروقة ! .

فهوت الزنجية على وجنتيها لطما وخمشا ؛ ثم هبت ضارية ،
وانقضت على الباب تفتحه على مصراعيه ، ومرقت منه مروق
البرق تفر هاربة بجلدها من البيت ... وقفزت السلم الخارجى
مثنى مثنى ... وأعملت قدميها ركضا ... تقع وتقوم ... وتقوم
وتقع ... وتللم نفسها وملاءتها ... وهى تصيح بأعلى صوت :
« أنقذونى يا خلق الله ! أنقذونى من بيت العقاريت هذا ... !
دستور يا أسيادى ! دستور يا أسيادى ! » .

ووقف « سوسو » ساذجا ألوبا إلى جانب « أم محمد » بعينيه
المستديرتين ، ووجهه الشاحب النحيل ، يتمصص متلذذا قطعة
كبيرة من الحلوى أخرجها من جيب منامته ؛ وراحت الطاهية
تضرب كفا بكف ، وهى ترقب المربية الزنجية ، وقد وصلت إلى
نهاية الشارع ، وما زالت تركض .. وتصرخ .. وتقع .. وتقوم ..
فقالت « أم محمد » تتمصص شفيتها عجباً ، وتناؤد بعنقها :
« لاحول ولا قوة إلا بالله ! ما لها هذه المرأة ؟ مجنونة هى ؟ » .
فقضم « سوسو » سعيداً هائناً قضة سخية من الحلوى ، ومضغها
يلوكها متمهلاً بعض الوقت ، قبل أن يجيب دون أدنى اكتراث :
« أظن ذلك ! » .

الجنس الضعيف

تمّطى الليل خفاشا هائلا كسلان ، وبسط جناحيه بتردد متلفنا
ينتظر - لا أحد يدرى ماذا - قبل أن يطوى الكون كله .
وغرقت الطبيعة فى صمت عميق يخيل للمرء أن الدنيا جمعاء قد
توقفت عن الوجود .

وتلكأت الساعات طويلة لا نهاية لها كأنما تتخبط ، لا تستبين
طريقها فى الظلام المطبق . وفجأة شق السكون صياح هزتين
تتشاحنان فى عنف وصخب ، ثم أمسكت إحداهما بخناق الأخرى
لحظات لم تلبث المغلوبة بعدها أن انفلتت هاربة تعرج فى انكسار ،
وقد ضمت إحدى قوائمها إلى بطنها ، تشيعها الظافرة بسيل من
السباب والتهديد . فنبح ضجراً كلباً أرمتى ضخمة من الجيرة ، تعرفه
كلتاها جيداً ، فخرستا على الفور ، وانتهت المعركة عند ذلك الحد .
فابتسم « حسن » وتراجع عن النافذة يغلقها تأهباً للنوم .
وما كاد يخطو نحو فراشه ، حتى تسمر مكانه ، ويداه على أزرار
منامته يصيخ . لا - لم تخدعه أذناه . كأنما شخص هناك على باب

الشقة ينقر عليه بإصبع حريصة . ترى من يكون طارق الليل
هذا ؟ ها هو ذا يعيد الكزة . لم لا يقرع الجرس ؟
أنهى « حسن » حيرته . وخرج من حجرة النوم إلى الردهة
وأضاء نورها وهو ماز بها . فغمر المكان ، وشتت الخيالات من
الأركان المظلمة .

وتحس مسدسه فى جيبه قبل أن يجذب الباب يفتحه فجأة
لتعثر داخله امرأة متلفعة بملاءة سوداء ، تغطى وجهها بنقاب
يستره كله .

انتظر « حسن » يرقبها وهى تللم شتات نفسها وثيابها ،
ثم سألها : « من أنت ؟ » .
فلم تجبه ، بل راحت تحمل نقابها وتخلع عنها ملأها ، ثم وقفت
أمامه مكشوفة الوجه .

كانت امرأة نَصفا سمراء تميل إلى السمنة ، يغلب عليها قصر
القامة . فبسطت ذراعيها وكفيها أمامه فى حركة معبرة : وهى تقول :
«أأذى بين يديك ياسيدى ، خالية الوفاض . لا سلاح معى
ولا سكين ؛ لا تخش شيئا ، فما جئتك إلا مستنجدة لا متهمجة » .
تقدمت خطوتين وهى تسائل من فوق كتفها :

«أسمح بربع ساعة من وقتك الثمين أسرّ إليك أمرا ... أأمن؟» .

وغمرت بعينها ، وأبرزت نابها الذهبي في ابتسامة مغتصبة ،
فغضّ الشاب بصره وقال باقتضاب :

« تفضلي ... وأوجزي .. »

وتبعها إلى حجرة مكتبته .

وهناك لم تضع المرأة وقتاً . فما جمعتها الحجرة حتى ارتمت
على قدمي « حسن » تقبلهما وتنوح مولولة :

« زوجي يا خلق الله ... زوجي ! ويلي من خيانة الرجال !

زوجي « المعلم حنفي » يقترن الليلة بسواي ! الخائن ... النذل ...

الجبان ! بعد معاشرة خمس وعشرين سنة وأما أخدمه ، وأحمله على

رأسي أسعى معه للرزق ، ينبذني حذاء قديما ويعقد على فتاة في

مثل سن ابنته يبنى بها الليلة ! آه يا ناس من النار التي تنهش قلبي ! » .

وهبت تدور حول نفسها وتدفع بيديها كأنما تستجلب بردا

لوقدة شعورها . فدفعها « حسن » مترفقا خارج الردهة وهو

يقول بصوت يشوبه ضيق :

« ألهذا السبب تزعجينني وتقلقين راحتي يا امرأة ؟ اذهبي ...

اذهبي غني ، فما كنت مأذون شرع ولا قاضي غرام ، .

— « سيدي ... الرحمة ... الرحمة ! » .

فأجاب « حسن » بحزم :

« الرجل لم يأت ما يعاقب عليه القانون . وليس من اختصاص ضابط مباحث مثل تلك الأمور التي لا تسوى إلا وديا . .
ثم أضاف :

« الجئي إلى شيخ حارتكم يصلح ذات بينكما . .
فتشبثت المرأة بيديه لا تخل سبيلهما ، وركزت قدميه
لا تترجح من مكانها :

« رويدك سيدى ... رويدك ؛ صبرك على ؛ أستحلفك بكل
غال ألا تتعجل بطردى ، فان تندم على تمهالك . .

فعقد «حسن» ذراعيه على صدره مصطبرا ؛ أمأهى فكفكفت
بكها دموعها التي أغضبته ، وتنحنحت تلقى برأسها إلى الخلف ،
فكأنما ألقت عنها الحزن والضعف ، فقد برقت عيناها ، وتحفرت
أساريرها ، وتمرت حركاتها وهي تميل نحوه هامسة بهمك :

« شيخ حارتنا ؟ وماذا فى استطاعة المسكين أن يفعل حيال
الشیطان الذى هو زوجى ؟ » .

ومطت عنقها تتأود به يمينا وشمالا :

« أين الانتقام يا حبة عيني ؟ لمن خلق ؟ المثلثاتى الضعيفات
المهضومات الحق سلاح سواه تكبل به الصاع صاعين لظالمين ؟ » .
فلوى «حسن» ذراعها بعنف :

« ماذا فعلت بزواجك يا امرأة ؟ » .

فتقاصر وجهها ألماً؛ ولكنها لم تحاول تخلص ذراعها من قبضته:
« لا شيء ... اطمئن » .

ثم كشرت عن نواجذها في بسمه رهيبه :
« لكنك أنت ... أنت يا حضرة الضابط الذى سيصيبه
بسوء ... وأى سوء ! »

وقهقهت بضحكة خشنة جوفاء لا أثر لمرح فيها ، كصدى
حجارة تتساقط داخل إناء نحاسى صدئ .

فتملأ « حسن » مغیظاً من غموض المرأة وتلاعبها بالكلام :
— « أفصحى » .

وتجهم وجهه :

— « لقد بدأت أضيق بك وبروايتك التى لا أظنها إلا فارغة
القالب والمعنى » .

فعلا صوت المرأة وبج فى انفعالها وثورتها :
« فارغة ؟ خذ عندك إذن ! » .

وحشرت رأسها بين كتفيها السمينتين كمدفع يتراجع لينطاق ،
ثم اندفعت ، بكل جارحة فيها ، قذيفة تنفث حممها :

« القشَّاط ... كبير تجار المخدرات ... هو عينه زوجى » المعلم

حنفى ، ، الجزار الأشهر على سن ورمح الذى لم يره رجال الضبط
ولا عرفوا شكله قط وإن حفظوا اسمه عن ظهر قلب . دوخ رجال
المباحث سنين طوالا وكان الفضل فى إفلاته كل مرة - ولا نخر -
لى أنا وحدى . فاقد كنت دائما ولا زلت ساعده الأيمن ، نكون
معا شركة لا ثالث لها . إذ أنى رفضت إشراك أحد معنا يكفى أن
تخونه شجاعته مرة فيكون هلاكنا وضياع هيبتنا إلى الأبد ، .
— « هكذا ؟ » .

وسحب « حسن » مقعدا جلس عليه يتأملها باهتمام .
— « إى والله . وقد ثبت بُعد نظرى وحسن تقديرى للأمور ، فلم
يحدث قط أن هاجمتنا قوة من رجال الشرطة . كيف ولم تحم حولنا
أى شبهة ؟ حتى أهل حارتنا لا يعلنون من أمرنا شيئا » .
فأول « حسن » إخفاء دهشته وهو يسألها :
« كيف ذلك ولا يخفى عادة على جارة شأن من شئون
جارتها ؟ » .

فارتفع حاجب الداهية ، وربتت كتفه كأنما تحابى طفلا :
« اسم النبي حارسك . شباب لم تزل والله . ولكن الحق كله
معك فى تعجبك فلن يخطر لك أبدا على بال نظام معيشتنا الدقيق
الذى وضعته بنفسى وسرنا عليه لانحيد عنه قيد أنملة . أولا : أقنا

في حى واخترنا زبائن من حى ... بل أحياء أخرى بعيدة لانطلعهم
على محل إقامة لكثرة تنقلنا ولكى لا يستطيع أحدهم أن يسعى
بنفسه وراء « راتبه » ، ولو تأخرنا عنه أياما لسبب أو آخر . ثانياً :
على الرغم من إدمان معظم أهل حارتنا الحشيش لم يكن زوجى
- الذى اشتهر بالصلاح بينهم - يشترك فى اجتماعاتهم ، ولم أسمع أنا
مرة بعقد جلسات - ولو ودية على سبيل المحاباة - فى بيتنا . ثم
ضحكت وأردفت : « فأنت ترى أن سمعتنا قشدة وشهد فى
الحى كله ! » .

فازدرد « حسن » ريقه ، وسألها كأنما يتلقى درسا عن أستاذ :
« ولكن البضاعة ... كيف ... أعنى ... من كان
يتسلها منكما ؟ »

-- زوجى المعلم حننى ، نفسه . كان يسافر فى أنحاء البلاد لشراء
عجول يذبحها ويبيعهها فى حانوته فيعود بها هى وه الرزم ، ... أما الرحلات
« الصعبة » ، فمكنت أقوم أنا بها . فأستخفى فى زى قروية تارة ،
وحضرية أخرى ، وابنة بلد أصيلة بملاءتها الحريرية السوداء وتثنيها
تارة ثالثة ، وأروح أذرع أرض الله من « الإسماعيلية » إلى
« الإسكندرية » ، ومن « دمياط » إلى « رشيد » أتجر فى السمن وأدس
فى صفائح « التراب » ، أو أشتري « بيعة » بطبخ وشمام أفرغ جوفه

وحدى في ظلة الليل وأملأه حشيشا . إلى آخر تلك الأساليب التي
لا يعجز عقل مثلي أن يتمخض عنها .

وصمت برهة ترمقه بنظرة تلونها سحابة من السخرية شفاقة . ثم
سأله بدورها :

« ألا تسألني أيضا كيف كنت أوزع البضاعة ؟ »

فزم « حسن » شفته ولم يجب ، لكنها تبرعت بالتفصيلات كمن
يمن بحسنة على سائل :

« كنت أفرش مشنة بالحشيش ، وأهيل فوقه حزم الفجل
والجرجير ، ثم أتمايل بها على رأسي بنت ريف ذات دلال - مرة
لأعيدها . ومرة غيرها أحشو ملء حلة كرنا أجوب بها الحارات
منادية فيخرج المدمنون كالجرذان من أوكارهم ويتبعونني عن بعد
أفرادا وجماعات حتى أحط رحلي في زقاق أختاره لساعتي ربما
لم تطأه قدمي من قبل ، فأجلس الغرفصاء والحلة أمامي أبيع
كرنا محشوا بالحشيش . ولم يكن رجال الشرطة يعيروني أدنى
اهتمام ، فليس هناك وجه للغرابة البتة في امرأة لم يروها من قبل -
ولن يروها بعد ذلك أبدا - مهلهلة الثياب تبيع العمال محشوا ساعة
الظهيرة عند خروجهم من المصانع ، .

فتشاغل « حسن » بقلم رصاص يخط به خطوطا عرضية على

ورقة أمامه وهو مطرق ، كله آذان . أما هي فبسطت كفها السمينة
تعدّ على أصابعها :

« ومرة أنا شحاذاة أدب على عصا مجوفة ملأى بلفائف « الغالى ،
ومرة أنا طباله فى موالد الأولياء أينما كانوا : فى « دسوق » ،
« طنطا » ، « إنبابة » ، « الأنفوشى » . وفى أفراح بنات العمد
والأعيان أنا « المعلمة » ، رئيسة فرقة الراقصات والمغنيات أحيى
الحفل وأحمل إلى رب الدار « راتب » عام ، وأقبض الثمن وأعود
به إلى زوجى . »

ثم تنهدت بحرقة :

« أهلكت روحى تعباً ، ونهكت جسدى هرولة هنا وهناك .
وعلام هذا كله ؟ ماذا أفدت ؟ ماذا جنيت ؟ » .
وتمصت شفيتها :

« على رأى المثل : قال ضرّة وحياة مرّة ! »

ثم هبت مسعورة ذئبة ضارية وقد تقلصت سحنتها :

« ولكن أبدا ... ومن خلقك ! أيا كلنى لحما ويرمى عظامى ؟ »

ثم ضربت صدرها بقبضتها كقروء الغاب عند النزال : « أنا ،
النمسة » والأجر على الله ! » .

فقاطعها « حسن » :

« قصارى القول ، لقد حكمت عليه لخيانته وجئتني واشية » .
فلوحت يدها مولولة :

« عيني علينا يا صنف النساء... لا حول لنا ولا قوة... مساكين! »
ثم أضافت :

« هو الذى حكم على روحه يا حضرة الضابط » .
فابتسم « حسن » :

« تمام . ولكن كيف تثبت عليه التهمة وليس فى داره
حشيش ، ولا يحمل معه شيئا منه كما تقولين ؟ » .
فتمايلت تيتها وغمزت بحاجب ولمزت بعين :

« توكل على الله وعلى » .
ثم سأله : « كم الساعة الآن ؟ »
فلما أجابها :

« الواحدة بعد منتصف الليل »
... عم وجهها بشر وهتفت :

« هذا ومن خلقك خير وقت وأنسبه للقبض على زوجى ...
الآن وبسلامته يجلس مزهوا منتفخ الأوداج وسط ضيفه فى
حفل زفافه » .

ثم جذبت « حسن » بغتة من ذراعه بانفعال كأنما أغضبته

الصورة التي رسمتها بنفسها ، وقالت تحضه على الخروج :

« هيا ! يطيل عمرك ربنا ... هيا بنا يا حضرة الضابط إلهي
ينجيك لشبابك ولا يحرق لك قلبا ! .. »

ونفثت عن فؤاد كلیم :

« هيا قبل أن يفلت الطير ! .. »

وفتحت رقطاء هائجة :

« الفاجرة ! قال تأخذ طيري وتنام على خيرى ! .. »

ووثبت تنشب أظفارها في الهواء تنهشه وتمزعه .

« أبدا ... لن يكون ! أنا على وجه الأرض ويفلت من يدي ؟

أبدا ... أبدا ! .. »

-- « كفى يا امرأة عن الصخب والزعيق . الدنيا ليل وصوتك

العالي أسمع الجيرة لا ريب . ماذا يقول الناس ؟ أهدي شيئا ،

وكلميني : من أدراني أن بلاغك ليس كيديا ؟ لن أخطو خطوة

معك قبل أن تتجمع لدى الأدلة الكافية المستوفاة . »

فدست المرأة على النور يدها في عبا وأخرجت رزمة ورق

دفعته إليه وهي تقول :

« هاكها : كشوفا ببيان الوارد إليه من حشيش خلال سني

اشتغاله بالتجارة فيه ، وأسماء التجار الذين باعوه إياه ، وإمضاءاته

جنباً إلى جنب مع إمضاءاتهم .

فسحب « حسن » من بينها وريقة زرقاء استرعت انتباهه ،
وغمغم وهو يحاول قراءتها :
« وتلك ؟ » .

— « آه ... هي رسالة بخط يد زوجي إلى تاجر فلسطيني يطاب
منه فيها صنفا بعينه من الحشيش لشخصية كبيرة من زبائن حانوت
الجزارة الذي يستر وراءه . وكان قد بلغني نبأ عزمه على الزواج
بغيري وطلاقي إكراما لعينيهما . فكظمت غيظي ولم أطلععه على
وقوفي على خيائته وغدره ، وقررت الانتقام في الخفاء . عيني علينا
صنف النساء ... جنس ضعيف ! ... »

وتمصصت شفيتها حسرة وألما . فقاطعتها « حسن » :
« وبعد ؟ » .

— « فلما أعطاني زوجي الرسالة آمناً لألقيها بنفسي في
صندوق البريد كالمعتاد ، احتفظت بها واستكثت كاتبا أجيرا
نسخة طبق الأصل منها أرسلتها : إلا أنني غيرت تاريخ اليوم
الذي يطلب فيه زوجي وصول البضاعة إليه ، حتى يوافق يوم
زفافه بالضبط » .

وقهقهت بجذل وتشفّ ، ثم أضافت :

« وناهيك ما حدث ، .

— « ماذا حدث ؟ ، .

— « ما وصل التاجر الفلسطيني بالصفقة إلى « السويس
حتى أرسل برقية إلى زوجي . فجاء جنونه ، وأسقط في يده ، وجاءني
مهرولاً يسعى إلى صلحي ، واندفع يقبل يدي ورأسي ، ويتوسل
ويلحف في الرجاء أن أسافر أنا لتسليمها مكانه : فرفضت طبعاً
وأسمعته وإخوتي والحبيبات من جاراتي ما يعجبك من ألوان
السياب المنتقاة - التي تنلج الصدر ، وتزيل عن القلب غمته !

فاضطّر هو إلى السفر صباح يوم زفافه - اليوم - وتسلم
البضاعة وعاد بها إلى بيته . أتسمعي يا حضرة الضابط ؟ البضاعة
في بيته الآن ! لم يجد بالطبع الوقت لتصريفها فأخفاها لديه
- لأول مرة في حياته - حتى يبني بعروسه ... وصرت على أسنانها
تضغط بيدها قلبها : « وحتى يرى له فيها أمراً من غده ! ، .

وكان « حسن » يتصفح الأوراق ملياً خلال حديثها . فما
فرغت من روايتها حتى دس المستندات في جيبه ، وقد ثبت له
خطرهما ، واختطف معطفه وطربوشه وخرج وهو يصيح بالمرأة :
« هيا بنا ! سأمّر في طريقنا على المركز ، أصرحب قوة بعد

أن أستصدر أمرا بتفتيش بيته فوراً ! .

فتبعته ، متمرة خطواتها ، تقول :

« ماذا كان في وسعي أن أفعل غير ذلك ؟ الآن سيتشام

بالعروس عندما يقبض عليه ليلة زفافها فيتركها ويعود إلى - إلى

أحضاني - أنا ؛ رفيقة عمره وعمله ! وعندما يخرج من السجن

سيجدني في انتظاره على الباب بفرقة موسيقى « حسب الله »

المعتبرة ؛ وطاقات الفلّ والريحان يحمالها إخوانه شجعان الحيّ ،

والأغاريد تنطلق ، والطبول تقرع ، والرقص قائم على قدم

وساق - فوق العربات - مني ومن صاحباتي ! .

ثم تهدت ونظرت حولها ، وهما يحثان السير في الليل البهيم

مع ثلة الجنود التي انضمت إليهما ، وغمغمت كأنما تحدث

الأشجار المستخفية في الظلال :

« وسيجد من كتفي هذه ... » - وربتها - « خير متكأ لرأسه

الكليل ! .

فزجر جندي متجههم السحنة كث الشارب والحاجبين :

« ألا تغلبي فك الكريه يا امرأة ؟

فاستدارت إليه :

« مالك ومالي ؟ هل ساطك أحد عليّ ؟ »



فستدارت إليه : ماما ومالی ؟ هل ساطك أأحد علی ؟

— « عجيبه ! أنا حاجتي ؟ » .

فشهقت تصيح بسخرية :

« ولمَ لا ؟ أحترم هذا ؟ أؤمنوع ؟ أحوال ؟ » .

فتدخل « حسن » :

« صه ... صه ! اسكت أنت وهى ! » .

فاقتربت « النسة » منه بتأذب :

« يحملك لشبابك تطمئننى ... أيسجن طويلا ... زوجى ؟ » .

فضحك « حسن » ضحكة صغيرة :

« ألم تبلغك الأحكام الجديدة ؟ خمسة عشر عاما ، أو خمسة

وعشرين عاما ، أو ... إعدام ! كل نصيبه ! » .

فتوقفت المرأة بغتة عن متابعتهم حتى سبقوها مسادة ، تنظر

حواليها ، حيوانا سقط فى فخ ، مرة أمامها ومرة إلى يمينها ، ثم إلى

شمالها ، وطويلا .. خلفها ، لا يدرى أحد بالضبط ما يدور بخلفها .

فأشار « حسن » إلى جنوده الذين اصطفوا إلى جانب ، على

حين صاح يناديها :

« ماذا حدث ؟ أخذش قدمك شىء ... شوكة مثلا أو قطعة

زجاج ؟ بربك أسرعى حتى لا يفوتنا الزفاف ! » .

فانقضت للحظتها تدب بغلّ تنهب الطريق نهبا :

« صدقت . هيا ... لنسرع ! إلهي لا يحرق لك كبدا ، .
ثم أردفت تتحدث لمن يود أن يسمع دون استثناء :
« وماله ... السجن ؟ على الأقل أعرف مكانه ؛ لا يروغ مني !
وكل أسبوع أزوره ، وأحمل له من الطعام أطيبه ومن الفاكهة
أشهاها ! أما إذا شفقوه ... ، وابتسمت في الظلام تتنهد بارتياح :
« فهذا يكون خيرا ... إى والله ! فحينئذ لن تطوله قوة العين
« لواحظ ، بل تنزوى بحسرتها ، وسوء فألها ، وقلة حظها ؛ على
حين أقيم أنا له مأتما فخما من أول الحارة لآخرها ، وأنصب سرادقا
فسيحا آتى له فيه بكبار المقرنين ، وأزور قبره محملة بالفطائر والبلح
أوزعها صدقة على روحه ! حقا ... أليس هو زوجي - أنا ؟ » .